5 me Année, No . 233

Lundi - 20 - 12 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢٣٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ شوال سنة ١٣٥٦ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهــــرس

الأخـــــلاق
بين النجاح والفشل

تعال يا صديقي ! جعلتمونى مظهراً لثورتكم على الأخلاق فحسب الناس أنى ثائر معكم عليها وهى مصدر سعادتى ومنبع رضاى . فلماذا لا تمضى ما تقول باسمك كما يفعل كل رجل له رأى وفيه صراحة ؟

فقال صاحبي وقد استوى على المقعد الذى يحبه من المكتب وكفَّاه تدوران على عدد مطوى من الرسالة أظنه الأخير :

إن مقال الثائر المجهول كقبر الجندى المجهول يعبر عن فكرة ويرمز لطائفة . ولو كان ذلك رأيى الخاص لأمضيتهُ ، ولكنه رأى جميع المنكوبين بأخلاقهم وإخلاصهم اضطرب على لساني حديثاً بعد ما اضطرم فى نفوسهم ثورة . ولقد كان فيما قلتُ وقال الإخوان تفريج لما كرَب صدورنا من وقاحة الحال وصراحة الواقع ؛ غير أن فى نفسى بعد أن قرأت هذا العدد كلمة

قلت وماذا تريد أن تقول بعد ما أجرّتْ لسانَك الأخلاقُ بعقلين متينى الحجة من عقول دعاتها وحملتها ؟

فقال : « إن الأستاذين الجليلين عزاماً والخولى أطلا علينا من قُدْس الأقداس وكلمانا بلغة الدين الذى يتجاهل الكفر ،

ولهجة الحق الذى يتنامى الباطل . وقدس الأقداس كما تعلم مكان بين النجوم ينزله الأحبار والفلاسفة فينظرون إلى السماء أكثر مما ينظرون إلى الأرض ، ويتصلون بالملائكة أكثر مما يتصلون بالناس ، ويدبرون أمر هذا الكوكب المظلم على أنه مَرَادُ الصلاح الخالص والخير المحض ، فلا يريدون أن يقيموا وزناً للمنكر ، ولا أن يلقوا بالاً إلى الشر ، حتى أنهم ليغفلون ذكر الفواحش فى كتب الدراسة ليجهلها الناشئ ، كأنما جهلك الشئ يمحوه من الوجود ! والشر منذ معصية آدم وجريمة قابيل قسيمُ الخير فى الأرض . والرذيلة هى الطبيعة الحرة لهذه الحياة ، أما الفضيلة فهى قيد لها وحدٌّ منها

لا أريد أن أقول لعلماء الأخلاق زاوجوا بين الخير والشر ينتج منهما مزاج مستقل لا هو الخير كله ، ولا هو الشر كله ، فتلك تجربة نعوذ بالله من غوائلها إذا طاشت ؛ ولكنى أطلب إليهم أن يعالجوا مشكلة الفضائل على أساس التسليم بأن للرذائل جاذبية ومنفعة ، وأن مصلحة الفرد لا ينبغى أن تذوب هذا الذوبان فى مصلحة الجماعة . ذلك أدنى إلى أن يكون العلاج أنجع والشفاء أتم . أما أن تكون القاعدة فى رأى الأستاذ الخولى أن الفاضل لابد أن ينجح ، والرذيل لابد أن يخيب ، إذا تساويا فى الاستعداد والاجتهاد والكفاية ، فإذا وقع العكس كان شذوذاً يؤكد هذه القاعدة ولا يهدمها ، فذلك على ما أظن حكم لا يصححه القياس ولا يناصره الواقع . وليس الأستاذ الخولى بالرجل الذي نضرب له الأمثال من الماضى ، ونذكر له الشواهد من الحاضر ، فإنه يعلم علم اليقين أن تاريخ الدنيا يسجل فى كل زمان وفى كل مكان أثر الرذيلة الخطير فى النجاح الخارق ، سواء أكانت الرذيلة فى الناجح أم فيمن يلابسه . هذان فرسان رائعان اشتركا فى خصائص القوة والفتوة ، ثم ضُمِّرا على نمط واحد ، وركبهما فى السباق فارسان على كفاية واحدة ؛ فلو أنهما تراكضا بالحق لاستوليا معاً على الأمد ؛ ولكن صاحب أحدهما حقنه بمادة يعرفها بياطرة السباق ويحظرها القانون ، فجعلت من كل شعرة فيه جناحاً بلغت به الغاية قبل أن يتوسط قرنه الميدان . وأحرز الفرس المحقون الرهن الضخم فأصبح ملك الخيل وسبع الليل . وشبيه بهذين الفرسين رجلان تماثلا فى الشهادة والكفاية والاستعداد والخلق ، ثم سارا معاً فى طريق الحياة جنباً إلى جنب ، وكان لأحدهما زوجة جميلة لبقة ، فحقنت زوجها حقنة تعرفها هى ، جعلته فى اليوم التالى سيداً للناس ورئيساً على الآخر . لا يستطيع المسبوق أن يستعد لمثل هذه الرذيلة لأنه لا يعرف مأتاها ، ولو عرف لما استطاع أن يحتقن بمثل هذه الحقنة وهو عالم . ولو تقصينا أسباب النجاح السريع ــ وهو الكثرة الفاحشة ــ لوجدنا هذه الحقنة هي جماع تلك الأسباب فى شكول مختلفة . وحصر الدعة واللذاذة فى الثراء الحلال البطىء آت من شعور الاستاذ نفسه . فإنه إذا لم يجد المراءة والمناءة إلا فى لحم الخروف ، وجدها الوف غيره فى لحم الخنزير . وإذا عد الأستاذ تاجراً من تجار الغلال أثرى بطيئاً وهو وادع بفضل الخلق ، عددنا له ألفاً من تجار المخدرات أثروا سراعاً وهم آمنون بفضل الشُّرَط

يقولون إن نجاح الأخلاق الفاضلة مشروط باستعداد الفاضل . والاستعداد أهبة الكفاح ووسيلة النجاح ما فى ذلك شك ؛ ولكن كيف اتفق أن يكون أكثر الأراذل قادرين وأكثر الأفاضل عجزة ؟ لقد ذكَّرنا بذلك فكاهة من قال إن أكثر أهل الجنة الأغفال والبُله من النساك والمتعبدين والجهلة ، وأكثر أهل النار العباقرة والأفذاذ من الفلاسفة والحكام والقادة . لم لا يجوز أن يفسَّر هذا النقص العام فى الفضلاء بأنهم يُلزمون أنفسهم الطريق الوعر إلى الغاية البعيدة ، بينما يجد غيرهم إلى الغاية الواحدة ألف طريق ؟

لقد سرنى أن فسر الأستاذان الجليلان ما عبنا من بعض الفضائل هذا التفسير ، فإنه — وإن كان أبعد المعانى عن فهم الناس لهذه الأخلاق — أقربها إلى القصد الذى تتوخاه من التعديل والإصلاح . ولعلك تلمح فى هذا التفسير اعترافاً مضمراً بأن من الفضائل ما لا يلائم بمفهومه الشائع طبيعة هذا العصر ولا روح هذا المجتمع و ... ... »

ورأيت صاحبى يتمكن فى مقعده الوثير ، ويسحب سيكارة من علبته الأنيقة ، ويريد أن يرخى للحديث العنان . فقلت له : حسبك ! حسبك ! فقد انتهت الصفحة وضاق الوقت . وليته اتسع حتى أسرد عليك حديث أحد السعداء الناجحين بالأخلاق أفضى به إلىَّ قبل أن تدخل على ، فربما وجدت فيه ما يرضيك ويهديك . فإلى فرصة أخرى

احمد حسن الزيات

وكان صباح

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

جاء يوم العيد، وطلع نهاره، وارتفعت شمسه، وأنا لا أرى أحداً يدخل عليّ فيقرئني السلام ويحييني تحية الصباح، ويهنئني بهذا العيد الجديد، ويتمنى لي كثيراً من أمثاله، وأمثال أمثاله إن شاء الله. شئ بارد!! أين هذه الزوجة التي كنت أظنها صالحة، والأولاد الذين كنت أرجو أن يكونوا بررة؟؟

وأنا يحلو لي الحديث على الريق، بين نوبات التثاؤب والتمطي تحت اللحاف أو الملاءة، ولا أذكر أني عدمت قط من يحدثني في صباح — حتى قبل أن أستيقظ! — يدخل عليّ أحد الصغيرين اللعينين فأسمع صوتاً ناعماً يناديني: «بابا... بابا» فأتقلب في فراشي وأحدث نفسي أن هذا حلم، ولكن الصوت يلح عليّ بالنداء «بابا... بابا» فافرك عينيّ بيد، وأدس الأخرى تحت الوسادة لأخرج الساعة وأنظر، فإذا هي الخامسة صباحاً! فأصيح: «يا خبر أبيض...! مالك ياولد!؟» فيقول «صباح الخير» فأقول: «أي خير يا أخي؟ حرام عليك!» فلا يعبأ بي، ولا يشفق عليّ، ويقول «هات القرررش» — هكذا ينطقها — فأحتال لأصرفه عني برفق وأقول له في جملة ما أقول «اذهب إلى أمك... خذه منها» فيأبى اللعين أن يتزحزح ويقول: «نائمة!» فأحدق في وجهه مستغرباً وأسأله «نائمة؟ بالذمة؟» فيؤكد لي أنهـا نائمة، فأقول «وأنا؟؟» فيقول «صاحي!» فأقول «تمـام... في محله... لا بأس... ولكن القرش تحت الوسادة التي تريح عليها أمك النائمة خدها الأسيل، فاذهب إليها وادفع يدك تحت المخدة... بقوة... وخذ القرش، فإذا لم تجده هناك، فستجده لا محالة بين أسنانها، فإنها ماكرة، فافتح لها فمها وانتزعه من بين أضراسها»

فيضحك الخبيث وقد راقه الكلام، ويسألني «وإذا عضتني؟» فأطمئنه وأؤكد له أني سأعضها انتقاماً له! فيذهب عني مسروراً...

أو تقبل الخادمة، ويحسن أن أقول إن لهـا في بيتي عشر سنوات، فتقف على رأسي وراء شباك السرير وتقول بصوت خافت ولكنه ملح: «سيدي... سيدي...»

فأنظر في الساعة التي تحت الوسادة، وأقرض أسناني من الغيظ، ولكني أتجلد وأقول: «ياصباح الفل، نعم ياستي... هل تريدين أن أفسر لك حلماً؟»

فتبتسم — أعرف أنها تبتسم وإن كنت لا أراها — وتقول «هل تريد الشاي خفيفاً أو ثقيلاً؟»

فأتنهد، فإن هذا سؤالها كل يوم منذ عشر سنوات، وأقول لها ما قلت كل يوم في هذه السنوات العشر:

«خير الأمور الوسط يا شيخه!»

فتسأل «نعم؟»

فأقول على سبيل الشرح «متوسط.. لا بالخفيف ولا الثقيل.. ماذا تصنع الست؟»

فتقول: «نائمة»

فأقول: «يابختها! ليتني كنت الست في هذا البيت السعيد!»

فتقول الفتاة معترضة «يا سيدي!»

فأقول: «اسمي... إذا كنت تحبين ألا أكون الست، فاذهبي إلى هذه الست التي تغط في نومها إلى الآن (الساعة الخامسة) وأيقظيها وقولي لها إني أصبح عليها وأقبل وجنتيها، واسأل عن الشاي الجديد أين خبأته؟ إفعلي هذا، والله يحفظك»

والدعاء للخادمة واجب، فما ثم شاي جديد، ولا خبأت الست شيئاً، ولكن لماذا يزعجني كل من في البيت في هذه الساعة المبكرة دونها؟

ويعلو الضجيج، ثم تدخل الست مرغية مزبدة، وهي تصيح بي: «ألا يمكن أن تكف عن هذا العبث؟ حرام عليك ياشيخ.. والله ما نمت إلا ساعتين»

فأقول «كالقطط... تأكل وتنكر... أنا أيضاً لم أنم إلا دقائق... ضاع الليل كله في أحلام...»

فتنحى عني اللحاف، وتشد يدي، أو رجلي، وهي تقول «طيب قم...»

فأصيح بها «إلى أين؟»

فتقول« وهل أنا أعرف ؟ قم والسلام ، ولكن هذا جزاؤك على إقلاق راحتى »

فأقول : « اتقى الله يا مسلمة »

فتقول : « ولماذا لا تتقيه أنت ؟ »

فأؤكد لها أنى سأتقيه من الآن فصاعداً ، وأرجو أن تتركنى أنعم بالرقدة ، ولكن هيهات ، فقد استيقظ كل من فى البيت ، فلا سبيل بعد ذلك إلى راحة أو نوم

***

ولكن الساعة قاربت التاسعة فى يوم العيد ، وما زال البيت ساكتاً على خلاف عادته ، فقلقت عليهم ونهضت ، ودخلت غرفهم واحدة واحدة ، ونظرت فى وجوههم وجسست نبضهم لأطمئن ، وأردت أن أستوثق وأن أنفى كل شك فى أنهم ما زالوا أحياء وبخير وعافية ، فوضعت أذنى على صدورهم — أعنى قلوبهم — لأسمع دقاتها ، ولم يكفنى هذا ، فقد كانت بقية من الشك تختلج فى صدرى ، فما رأيتهم يتحركون ، فرحت أقرص هذا وأشد أذن ذاك لأرى هل يحسون أو لا يحسون ، فقاموا جميعاً فزعين يصيحون ويحتجون ، فلما سكنت الضجة قليلاً قلت لهم : «ماهذا النوم ؟ قوموا رحمكم الله وتعالوا هنئونى »

فمشوا ورائى وحفوا بى حيث جلست ، وأقبلوا علىّ يسألوننى ؛ وتعلق بى الولدان اللعينان فرحين ، ووقف الباقون ينتظرون أن أفضى إليهم بالسر ، فأغرقت فى الضحك ثم قلت وأنا أنهض :

« أليس في البيت شيء يؤكل ؟ إنى أتضور جوعاً »

فقالت الزوجة الصالحة : « شيء يؤكل ؟ هل تعنى أنك أزعجتنا جميعاً على هذه الصورة الفاضحة ، لا لسبب سوى أنك تريد أن تأكل ؟ »

فقلت : « اسمعى يا امرأة ... لا تجدفى ... إن الطعام شيء مقدس ... لا تذكريه إلا بلهجة الاحترام والتوقير ... فما خلقنا إلا لنأكل ... على الأقل هذا ما يبدو لى أنا ... لا تقاطعى من فضلك ... أنت تظنين أنك خلقت لتنامى ... ولكنك مخطئة .. أوه جداً ... الأكل أحلى ، وأوفق ، وأليق بالحى ... أما النوم ؟ ما الفرق بالله بين الميت والنائم ؟ »

فقاطعتني وقالت : « يعني ضحكت علينا وأجريتنا وراءك بعد أن أوهمتنا أن هناك داعياً للتهنئة ... ؟ »

قلت : « كلا ... لم أضحك على أحد ... أليس اليوم يوم عيد ؟ تعالوا إذن قبلوا يدى بأدب ، وهنئونى ، وادعوا لى بالسعادة وطول العمر ... مالكم ؟ »

ولم أسمع جواب السؤال ، ولم أعد أعنى بأن أسمعه ، فقد شغلت عنه بالنار التى اندلعت فى بدنى ، من القرص الذى انهال به علىّ الكبار والصغار ، حتى خيل إلىّ أنى فى خلية من خلايا النحل ، لا فى بيت يسكنه آدميون ...

وقلت وأنا أنظر إلى وجهى في المرآة : « ليتكم تفعلون بى هذا كل صباح .. لقد صار وجهى أكبر .. وأحمر .. وأحلى .. ما شاء الله ! »

فقالت الزوجة الصالحة : « كابر ... كابر ... »

قلت : « لا مكابرة ... هى الحقيقة ... لقد صار خداى كالوردتين ... »

قالت : «حسن ... سنصبحك ونمسيك بما يحفظ لك حمرتهما. مستعدون يا أولاد ؟ »

فصاحوا جميعاً : « أيوه ... »

فقعدت ، وقد نويت أن آخذ بثأرى ...

وكان صباح ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

ليلى المريضـــة بالعراق

للدكتور زكي مبارك

— ٢ —

... ودخلت أعدو خلف الوصيفة في بصر زائغ ، وقلب خفاق ، فلم أكد أتبين مدخل البيت ، وعثرت قدمى على السلم عثرة خفيفة سلم الله منها ولطف ، وانتهيت إلى غرفة صغيرة فيها أريكة وثلاثة مقاعد ، وتركتنى الوصيفة وراحت تدعو ليلى ، فتلفت أدرس أساس الغرفة فى لهفة وشوق ، فوجدت على الحائط قطعة من القطيفة نقش عليها هذا البيت :

يقولون ليلى بالعراق مريضة فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ورأيت بجوار تلك القطيفة صورة السيدة نادرة التى جمعت عواطف العرب حول ليلى بفضل ما أبدعت فى ترجيع هــذا البيت ، ورأيت فوق المنضدة كتابين : رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، وذكريات باريس للشيخ زكى مبارك ، فيا عجباً كيف جاز لمنزل ليلى أن يجمع بين الهوى والضلال !

وغابت ليلى ولم تعد الوصيفة ، واستمر الحال كذلك عشرين دقيقة ، فدفعنى الملال إلى التلهى بالنظر فى سلة المهملات ، وما أدرى كيف وقعتُ فى هذا الفضول ، فهل تصدقون أنى رأيت بين الخطابات الممزقة رسالة من «فلان» يؤكد لها أن زكى مبارك أديب وليس بطبيب ؟ سامحك الله يا دكتور فلان ، ولا أراك نعمة الهوى والجنون !

لعل ليلى فى زينتها ، وإلا فكيف أعلل صبرها عن لقائى كل هذا الزمن الطويل ؟

ثم فتح الباب ، ودخلت امرأة ملفوفة بالسواد لا تقع العين منها على شىء ، ولم لا أقول دخل شبح أسود نحيل كأنه عود الخلال ؟

وانحط ذلك الشبح على أحد المقاعد ، ولكن هذه الجفوة لم تمنع قلبى من تواتر الخفوق . وبعد لحظات طوال كأعمار الأحزان تكلمت ليلى

رباه ! ماذا أسمع ؟ إن أذنىّ لا عهد لها بمثل هــذا الصوت المتكسر الناعم الحزين

ومضت ليلى تتكلم وتسهب ، ولكني لم أفهم شيئاً ، فقد كنت مشغولا بدرس طبيعة هذا الصوت ، هذا الصوت الذى يذكرنى بتلك الفتاة التى خفق القلب لها أول خفقة ، والتى قلت فيها أول قصيدة ، وسكبت عليها أول دمعة ، تلك الفتاة المنسية التى تنام فى قبر مجهول تحت سماء سنتريس

ما هذا الصوت ؟ يا رباه ! أفى الحق أنى سمعت أمثال هــذه النبرات على كثرة ما طوّفتُ فى البلاد ؟

لا أكذب الحق ، هذا جوهر لم أشهد مثله فى سنتريس ولا باريس ، وإنما هو من جواهر العراق ، هو صوت تحدر عن تلك الانسانة التى قال فيها أحد المفتونين فى بغداد :

وكأنَّ رَجْعَ حــديثها قِطعُ الرياض كُسِينَ زهرا

هو صوت تحدر عن تلك الانسانة التى قال فيها أحد القدماء :

رُهبانُ مدينَ والذين عهدتُهم يبكون من خوف العذاب قُعودا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خروا لعزةَ ركَّعاً وسجودا

هو صوت ليلى يا بنى آدم ، ليلى المريضة بالعراق ، ولو سمعه الشيخ فلان لسال منه اللُّعاب

ثم انتبهت ، فقلت فى نفسى : إن ليلى بخير ، فهذا الصوت الضعيف يحمل قوة تهد رواسى الجبال

ثم انطلقنا نمدد فى شجون الأحاديث ، فسألتنى عن مصر ، وسألتنى عن صاحبة الذهبية التى ترسو على الشاطئ الأيمن خلف جسر اسماعيل ؛ فعجبت من أين تصل أخبارى إلى ليــلى وهى مريضة بالعراق ، وقلت : إن تلك الانسانة بخير ، ولكنها تركت الذهبية وعادت إلى منزلها بمصر الجديدة ، وقد صحا القلب يا ليلى فلم يعُــد بيننا تلاق منذُ ربيع سنة ١٩٣٥ والله المستعان على مكاره الصدود !

فتنهدت ليلى وقالت : حتى أنت تنسى العهود ! وماذا خليت لغُــلف القلوب ؟

ومضت تتحدث عن الحياة الأدبية فى وادى النيل ، وسألتنى عن كثير من الأدباء ، فكنت أذكرهم جميعاً بما يحبون أن يذكروا به فى بغداد ، ورأيت أن أكون أميناً فى تبليغ التحيات فقلت : إن الأستاذ الزيات يسلم عليك . فقالت : لا أحب أن أسمع اسمه . فقلت : وكيف ؟ فقالت : هل تصدق أنه أقام سنين فى بغداد ولم

يسأل عنى ؟ فتشجعتُ وقلت : لعل له عذراً وأنت تلومين ! ذلك رجل يتهيب أقاويل المرجفين

واستطردت فقلت : ولعل الدكتور السنهورى قام بالواجب .

فضحكت ضحكة عالية كادت تخرق النقاب وقالت : السنهورى أغلظ كبداً من ذلك !

فقلت : وما صنع الدكتور عبد الوهاب عزام ؟

فأجابت : أوَ كنت تحسبنى أنتظر زيارة الدكتور عزام ؟ إنه رجل أديب ، ولكن انشغاله بالتحريم والتحليل لم يترك فى قلبه مجالاً لرقيق الأحاسيس

فقلت : لقد مرّ الأستاذ أحمد أمين ببغداد منذ سنين ، فماذا فعل ؟

فقالت : هو رجل صافى الذهن ، ولكن يظهر أنكم أوهمتموه فى مصر أن العالم الحق لايليق به أن يُشغَل بشؤون الوجدان

ثم أغرقتْ فى صمت مُوحِش حسبتُه لوناً من العتاب

* * *

وجاءت أقداح الشاى ، فتجرأتُ وقلت : وأين أكواب الصهباء ؟ نحن فى حضرة ليلى وتحت سماء بغداد !! فقالت : أنا امرأة مسلمة ونحن فى رمضان ؟ وأنتَ ؟

فقلت : وهل حسبتنى من الكافرين ؟

وفهمتُ أننى أخطأت فتغيرتِ مجرى الحديث

— مولاتى ليلى !

— نعم ، يامولاى !

— إنما جئت للعناية بصحتك ، كما تعلمين

— أعرف ذلك ، وهو فضل سأذكره ما حييت . سأذكر أن الحكومة المصرية كانت أعرف الحكومات الشرقية بالواجب نحو امرأة عليلة أوحت ما أوحت من الشعر والخيال ثم أضرعها الداء فتناساها الأهل والأقربون

فقلت : البركة فى الحكومة العراقية

فقالت : الحكومة العراقية ؟ سامحها الله ! هل تصدق يا دكتور أن الحكومة العراقية تبيح لمحطة الإذاعة أن تذيع جميع الأغانى والأناشيد ، إلا الصوت الحزين :

يقولون ليلى فى العراق مريضة فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وهنا تنبهت إلى أنى لم أسمع هذا الصوت فى بغداد

فقلت : وكيف تحرِّم الحكومة العراقية هذا الصوت ؟

فأجابت : إن الحكومة فى هذا الزمن لاتعرف غير الجيش والرماح والسيوف والمدافع ، وهى تبغض أحاديث الوجدان كل البغض ، ولا يرضيها أبداً أن يتحدث إنسان عن ليلى المريضة بالعراق

فقلت : وكيف يصح ذلك وعندكم وزير مشرق الجبين هو الدفتريّ ، وعندكم وزير أديب هو الشبيبى ؟

فقالت : أما الدفترىّ فله من اسمه نصيب ، لأنه منسوب إلى الدفتر ؛ وأما الشبيبى فلا تغرنّك بسماته العِذاب ، فقد كان شاعراً فيما سلف ، أما اليوم فهو من دواهى العراق ، العراق الذى يعبد النضال

ومرت لحظات صمت كانت أبلغ من الإفصاح

* * *

— مولاتى ليلى !

— نعم يامولاى !

— إنما جئت للاهتمام بصحتك

— أشكر لك يادكتور ، ولكنك تكرر هذه العبارة . فماذا تريد ؟

— أريد أن أرى وجهك ويديك

— وهل تريد أن تخطبنى ؟

— ليس هذا ما أريد ، فلى بحمد الله أهلٌ وأبناء

— إذن ماذا تريد ؟

— اعقلى يا ليلى ، إن الأمر كله جِدّ ، والأمة المصرية تهتم بصحتك أبلغ اهتمام ، وقد نزلت الحكومة عند إرادة الأمة فأوفدتنى إليك ، ثم بالغتْ فى الاحتياط فأوعزتْ إلى الدكتور على باشا ابراهيم أن يقترح على الجمعية الطبية أن تجعل مؤتمرها المقبل فى بغداد ، وأنا أحب ألا يعقد المؤتمر إلا وأنت فى عافية الفرس الجموح ، فإن لم يمكن ذلك فلا أقل من أن أقدِّم للمؤتمرين تقريراً شافياً يشهد بأننى لم أضع الوقت فى التعرف إلى عيون الظباء . وسيتقدم الدكتور محجوب ثابت وهو من خصومى الألدّاء ، وأخشى أن يشى بى فيصرح لمعالى الأستاذ نجيب الهلالى بك بأننى لم أكن فى الحرص على مهمتى من الصادقين

وبدأت ليلى فكشفت عن يديها ، فانخلع قلبي من الرُّعب ، حين وقع البصر على تلك الأنامل الصُّفر الدِّقاق

فتماسكتُ وقلت : وعيناك ؟

فألقت النقاب عن وجه مليح التقاسيم كان له في ماضيه تاريخ جميل ، وتأملت أنفها مرات ومرات فرأيت فيه أخيلةً من الملاحة قلما يجود بمثلها الزمان

ثم ارتقيتُ فوقعتُ على عينيها وُقوعَ الطائر الظمآن على الورد النمير

الله أكبر ! ما هذا السحر المبين ؟ أأنت مريضة ياليلى ولك هاتان العينان ؟

فابتسمت وقالت : صدق الدكتور فلان حين كتب إليّ أنك أديب ولست بطبيب !

فقلت : إنما أريد بعث الطمأنينة في قلبك المروّع يامريضة العراق

وقضيت ساعتين في مسامرة ليلى ثم استأذنت في الانصراف والله المحمود على نعمة ذلك الحديث

* * *

والآن أوجه القول إلى الأمة المصرية ، الأمة القلقة على المريضة بالعراق ، ولا سيما الأستاذ محمد الهراوي الذي دسّ في جيبي دينارين على المحطة ، أجرة برقية أرسلها من بغداد ليطمئن على ليلى المريضة بالعراق ، إليهم أوجّه الكلام فأقول :

بني وطني :

إن ليلى تملك عنصرين مهمين من عناصر الحياة : رخامة الصوت ، وملاحة العينين ؛ ولكنها مع ذلك فريسة الضَّنَى والنحول ، وسأبذل جهد الجبابرة لأصل بها إلى ساحل النجاة

وقد كلفت السيدة جميلة القيمة بشارع صريع الغواني أن تحتال في دعوة وصيفة ليلى لقضاء سهرة بريئة في منزلي بشارع الرشيد ، فإن حضرت تلك الوصيفة فسأعرف سِرّ ليلى . سأعرف كيف قضت أهوال الحب بأن تصل إلى ذلك النحول

فإن تمت تلك المحاولة فقد أصل إلى شيء ، وإن لم تتم فستذهب جهود المؤتمر الطبي أدراج الرياح

وأنا أرجو صديقي الأستاذ الزيات أن يقف أطباء مصر على تفاصيل هذه المعضلة ، فما أحب أن يعودوا خائبين ، فيسيئوا إلى سمعة الحكومة المصرية بلا موجب معقول

وأنت أيتها السيدة التي اسمها جميلة ، والتي زعمت أنني فتى جميل ، اسمعي : ليس يهمني بالدرجة الأولى على حد تعبيركم في بغداد أن تغسلي ثيابي ، وأن تحضري لي مائدة فخمة في كل أسبوعين ؛ يابخيلة ، وإنما يهمني أن تقودي وصيفة ليلى إلى منزلي ، إلى غرفة الاستقبال يالئيمة لا غرفة السرير ، فإن عند تلك الفتاة أسراراً تكشف المحجوب من حياة ليلى المريضة بالعراق

يا جميلة ! لقد كنت في صباك جميلة ، فكوني عند ما أرجوه من محمود الظنون

يا جميلة ! أنا أنتظرك مع وصيفة ليلى في الساعة العاشرة من مساء السبت المقبل ، والله بالتوفيق كفيل

(للحديث بقية) زكي مبارك

مصرع شجرة الدر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت كليوباتره آخر ملكة جلست على عرش مصر الفرعونية، وكانت شجرة الدر أول وآخر ملكة جلست على عرش مصر الإسلامية . وكانتا كلتاهما آية الجمال والسحر ، وعنوان البطولة والحزم ، زينة الملك ، وملاذ العرش والدولة ؛ وقد لقيتا كلتاهما مصرعها في ظروف روائية مؤثرة ؛ ولكن بينما تحيط الأسطورة بحياة كليوباترة وتكاد تغمر حوادث مصرعها ، إذا بشخصية شجرة الدر تبرز واضحة خلال الفترة القصيرة التي تبوأت فيها عرش مصر ، وإذا مصرعها مأساة قصر تحيط بها جميع العوامل والظروف التي تجتمع حول مآسي القصور

لم تكن شجرة الدر كما تريد أن يصورها القصص أحياناً ، غانية قصر تعتمد على سحرها النسوى فقط في تبوء المكانة التي سمت إليها ؛ ولكنها كانت فوق سحرها الجم ، امرأة رفيعة الخلال وافرة الذكاء والعزم ؛ بدأت حياتها جارية وحظية للصالح نجم الدين أيوب ولد الملك الكامل ملك مصر مذ كان نائباً عن أبيه بالولايات الشرقية . ولما توفى الملك الكامل ، وتولى ولده الملك العادل دون أخيه الأكبر الصالح نجم الدين ، وأعلن الصالح الثورة على أخيه بقيت شجرة الدر إلى جانبه في جميع الوقائع والخطوب التي خاضها ، وشاركته مرارة الحرمان والأسر . ولما خلع الملك العادل وتولى الصالح مكانه ملك مصر في سنة ٦٣٧هـ تألق نجم شجرة الدر وتبوأت ذروة النفوذ والسلطة وغدت كل شيء في البلاط وفي الحكومة . وكان الصالح قد فتنته خلالها الرفيعة فأعتقها وتزوجها ، ورزق منها ولداً يدعى خليل . ولم تبق بعد حظية تسمو بجمالها وسحرها ، ولكنها غدت سيدة القصر الشرعية ، وأم ولده المحبوب ؛ كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ في بلاط القاهرة نفس الدور الذي لعبته من قبل صبح النافارية (البشكنسية) جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد في بلاط قرطبة . ولما توفى ولدها خليل حدثاً بعد ذلك بأعوام قلائل ، لم تزعزع هذه الضربة الأليمة مركزها ، بل لبثت محتفظة بنفوذها وتأثيرها في توجيه الشئون

ولما قدم الفرنج الصليبيون إلى المياه المصرية بقيادة ملكهم لويس التاسع في أوائل سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، وحاصروا دمياط ، كان الملك الصالح مريضاً وكان البلاط في حيرة ، وكانت مصر تضطرب من أقصاها إلى أقصاها ؛ فأبدت شجرة الدر في هذه الآونة العصيبة ثباتاً مدهشاً ، واستطاعت بعزمها وبراعتها أن تسير الشئون ، وأن تشرف على أحوال الدفاع ؛ ثم توفى الملك الصالح بعد ذلك بأشهر قلائل ، فأخفت شجرة الدر نبأ وفاته ، حتى استقدم ولده توران شاه من الشام ، ولبثت مدى حين تخرج الأوامر والمناشير ممهورة بالعلامة السلطانية . ولما وصل توران شاه إلى مصر وتقلد الملك باسم الملك المعظم ، أساء السيرة ، واختلف مع شجرة الدر ومع مماليك أبيه ، فأتمروا به وقتلوه لنحو شهرين فقط من ولايته ، واتفقوا على تولية شجرة الدر ، فتبوأت عرش مصر في عاشر صفر سنة ٦٤٨هـ

وكانت ولاية شجرة الدر حادثاً فريداً في التاريخ الاسلامي ، فلم تجلس امرأة قط من قبلها أو بعدها على عرش مملكة مسلمة مستقلة ؛ وكان للحادث وقع عميق في العالم الاسلامي حتى قيل إن الخليفة المعتصم بالله العباسي نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة ، ونماه بعض فقهاء العصر . وشعر المماليك الذين ولوها بهذا الشذوذ ، فعينوا إلى جانبها أميراً منهم هو عز الدين أيبك التركماني ليكون مقدماً للعسكر ومشرفاً على الشئون . ودعى لشجرة الدر على المنابر ، ونعتت في الخطبة « بالجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة السلطان الملك الصالح » وكانت علامتها على الأوامر والمراسيم : « والدة خليل » . وتولت شجرة الدر الأمور بحزم ، وكان الجيش المصري قد استطاع في تلك الأثناء أن يقف زحف الصليبيين وأن يسحقهم في موقعة المنصورة الشهيرة (المحرم سنة ٦٤٨) ؛ وأسر لويس التاسع وعدد كبير من أمرائه ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين ، فأشرفت شجرة الدر على هذه المفاوضات ، وانتهت بانسحاب الفرنج من الأراضي المصرية والافراج عن ملكهم لقاء

فدية كبيرة؛ وأبدت شجرة الدر في ذلك كله براعة ومقدرة تخلق بأعظم الرجال

* * *

على أن شجرة الدر كانت تشعر بضعفها كامرأة فرأت أن تتزوج من عز الدين أيبك، فتقوى بذلك مركزها كملكة، وتدعم عصمتها كامرأة. ولما شعرت أن هذا الزواج لم يحقق كل شيء، ورأت أن جلوسها على العرش قد أثار الفتنة في الشام ويخشى أن يثيرها في مصر، نزلت عن العرش لزوجها، وجلس أيبك مكانها على عرش مصر باتفاق المماليك البحرية باسم الملك المعز، وذلك في آخر ربيع الآخر، وبذلك لم يطل ملك شجرة الدر أكثر من ثمانين يوماً

وعادت شجرة الدر امرأة وزوجاً فقط، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط، وكان المعز طاغية ظلوماً، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التي رفعته إلى الملك، ويصدع بأمرها ووحيها؛ وكانت شجرة الدر كثيرة الغيرة بالرغم من كونها قد جاوزت سن الشباب، فأرغمت المعز على طلاق زوجته الأولى، وكانت تحدث بينهما المناظر العاصفة من وقت إلى آخر. ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدة فكر في اختيار زوجة أخرى، وبعث بالفعل إلى بدر الدين صاحب الموصل يخطب ابنته؛ ولعله لم يكن في الوقت نفسه بعيداً عن التفكير في التخلص من شجرة الدر، والتحرر من نيرها المرهق؛ ولكن شجرة الدر كانت ترقب حركاته ومشاريعه، فثارت نفسها سخطاً وكبرياء، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها لدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص منه، فانه سيعاجلها بالتخلص منها

فلم تضع وقتاً، ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها؛ وكان المعز يقيم منذ أيام في مناظر اللوق بعيداً عنها، فبعثت إليه تتلطف به وتدعوه إلى قصر القلعة، فاستجاب إليها المعز؛ وكانت قد رتبت له من غلمانها خمسة ليقتلوه، وعلى رأسهم الخادم سنجر الجوهري. وفي مساء اليوم الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ ركب المعز إلى القلعة، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة؛ وبعد أن مكث حيناً دخل الحمام فانقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذي أصدرته شجرة الدر. وتنقل الرواية إلينا عن مصرعه روايات مثيرة، فيقال إن القتلة أخذوا بخصيتيه حتى زهق، أو أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه. وعلى أي حال فقد تمت الجريمة وقتل المعز قتلة مروعة بتحريض زوجه الغادرة الخؤون

وحاولت شجرة الدر على أثر ذلك أن تقيم في السلطة أميراً آخر تستتر وراءه في الحكم فلم توفق؛ ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور ولد المعز، وهو يومئذ صبي في نحو الخامسة عشرة، ووافق الأمراء الصالحية على توليته اتقاء الفتنة؛ وامتنعت شجرة الدر بجناحها بالقلعة مع نفر من خدمها وجواريها، وطالب الأمراء المعزية بالقبض عليها، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية حماية لشجرة الدر، وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها. وفي اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكي واعتقلت في البرج الأحمر أحد أبراج القلعة مع بعض جواريها، وقبض على الخدم الذين اشتركوا في الجريمة وزعيمهم سنجر وصلبوا جميعاً، وأعدم عدة كبيرة من الغلمان والطواشية، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا بتهمة الاشتراك في الجريمة، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل

وأصر الأمراء المعزية بعد ذلك، بتحريض الملك المنصور وأمه، على معاقبة شجرة الدر، واعترض الأمراء الصالحية أياماً؛ ولكنهم كانوا الفريق الأضعف فلم تغن معارضتهم شيئاً. وفي يوم السبت الحادي عشر من ربيع الثاني (أو الجمعة ١٧ منه على رواية أخرى) نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر، وقبضوا على شجرة الدر، وحملوها إلى أم الملك المنصور لكي تتولى عقابها بنفسها. وهنا يقول لنا المقريزي «فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت؛ وألقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياماً، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها، ثم دفنت بعد أيام — وقد نتنت وحملت في قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسي؛ وكانت من قوة نفسها، لما علمت أنها قد أحيط بها، أتلفت

حياة الأمة العربيـــة (*)

بين الماضي والمستقبل

للأستاذ ساطع بك الحصري

مدير الآثار العامة في بغداد

يسرني أن أحيي فريق الكشاف العربي ، تحت سقف هذا البناء القديم ، باسم دائرة الآثار القديمة

إنني أحيي فريق الكشاف العربي باسم دائرة الآثار العربية مع علمي بأن الكثيرين من الحضور سيستغربون قولي هـذا وسيتساءلون : ما شأن الآثار القديمة في الأعمال الكشافية ؟

في الواقع أيها السادة أن الكشاف يمثل « الشباب المتجدد » وأعمال الكشافة كلها بمثابة « استعداد للمستقبل » في حين أن هذه البناية هي « موئل القديم » وكل ما فيها « مثال الماضي ومرآة التاريخ » فجمع الكشافة في هـذه البناية القديمة بين القاعات المملوءة بالآثار القديمة ، يظهر في الوهلة الأولى كأنه « الجمع بين الأضداد » مثل « الجمع بين الماضي والمستقبل »

غير أنا ، أيها السادة ، إذا تعمقنا في البحث قليلاً نضطر إلى التسليم بأن الماضي والمستقبل ليسا متناقضين إلا من حيث المعنى اللغوي ؛ أما من جهة العمل الاجتماعي فإنهما مرتبطان متلازمان ، فإن الماضي منبع المستقبل دائما ، كما أنه من عوامل الدفع إلى الأمام في كثير من الأحيان ولا سيما في حياة الأمم التي تستفيق من سباتها وتنزع إلى النهوض بعد الرقود

لقد قال أحد المفكرين : « إن الأموات لا يرقدون في المقابر في حقيقة الأمر ، بل إنهم لا يزالون يعيشون في نفوس الأحياء ويسيطرون على الكثير من أعمالهم في كثير من الأحيان» إن هذا القول يحتوي على قسط كبير من الحقيقة ولا سيما في حياة الأمم . فلأجل أن نقتنع بذلك جيداً يجدر بنا أن نلق نظرة عامة على أهم مقومات الأمم

إن كل أمة من الأمم تكون شخصية معنوية تتصف بالحياة والشعور وتمتاز ببعض النزعات والميول

إن حياة الأمة تقوم بلغتها بوجه عام ، أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس — في حقيقة الأمر — إلا في الحرمان من اللغة الخاصة بها . إن الأمة التي تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها ، تصبح مستعبدة لها ولكنها لا تفقد حياتها ما بقيت محافظة على لغتها ، فقد قال أحد المفكرين : « إن الأمة المحكومة التي تحافظ على لغتها تشبه السجين الذي يمسك بيده مفتاح باب سجنه » إنها تبقى حية ما بقيت محافظة على لغتها ؛ إنها تبقى مستعدة للتحرر والاستقلال ما دامت مستمسكة بلغتها . أما إذا فقدت هذه اللغة فإنها تكون قد فقدت الحياة ؛ تكون قد اندمجت في الأمة المستولية عليها وفقدت كل ما لها من عناصر الكيان . إنها تكون قد زالت من عالم الوجود وبتعبير أقصر « ماتت » بكل معنى الكلمة . إن اللغة التي تكون بهذه الصورة هي « روح الأمة وحياتها » وتمثل « أهم عناصر القومية وأثمن مقوماتها » . أليست ميراث الأجيال الماضية وهدية الحوادث التاريخية بوجه عام ؟ أفلا يحق لنا أن نقول إنها تربط الماضي بالمستقبل دائماً ؟ .

* * *

هذا ويجدر بنا أن نلاحظ ، أيها السادة ، فضلا عن كل ذلك أن الحياة ليست كل ما يهم الوجود . فإن هناك شيئاً آخر لا يقل أهمية عن الحياة وإن كان تابعاً له ، ألا وهو الشعور . إن للأمم شعوراً كما للأفراد . فالشعور القومي بالنسبة إلى حياة الأمم مثل الشعور الشخصي بالنسبة إلى حياة الأفراد .

قلنا إن حياة كل أمة من الأمم تقوم بلغتها ، ويجب أن نعرف

(*) نص الخطبة التي ألقاها الأستاذ ساطع الحصري بك مدير دار الآثار العامة في العراق في الحفلة التي أقامتها دار الآثار لتكريم الوفد الكشافي العربي في دار الآثار العربية

شيئاً كثيراً من الجواهر واللآلئ كسرته في الهاون [1] »

وهكذا زهقت تلك التي لبثت مدى أعوام طويلة زينة البلاط المصري وصاحبة الحول والسلطان فيه ؛ وزهقت بنفس الأسلوب المروع الذي زهق بها زوجها الملك المعز ؛ وكان القصاص مثيراً ولكن عادلاً ، وكان الفصل الأخير مأساة قصر بدأت رائعة باهرة ، ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة

محمد عبد الله عنان

(١) السلوك ج ١ ص ٤٠٤

فى الوقت نفسه أن شعور كل أمة من الأمم يتكون من ذكرياتها التاريخية الخاصة بها

فالأمة التى تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها ، تكون بمثابة فرد فاقد الشعور ، بمثابة فرد يغط فى النوم ، أو بمثابة مريض فى حالة الإغماء . نعم إنه لا يزال على قيد الحياة ، ولكن حياته هذه لا تكتسب قيمة إلا إذا استيقظ من نومه واستعاد الشعور الذى فقده مدة من الزمن

فيحق لنا أن نقول إن إهمال التاريخ القومى يكون بمثابة الاستسلام للذهول والكرى ؛ وأما نسيان التاريخ المذكور فيكون بمثابة فقدان الشعور ...

هذه حقيقة يعرفها جيداً رجال الحكم والاستعمار ويستفيدون منها دائماً ، فهم عند ما يستولون على أمة من الأمم يبذلون قصارى جهدهم لإبعاد ذاكرتها عن تاريخها الخاص . إنهم يتوسلون بكل الوسائل الممكنة لتخدير الأمة وتنويمها عن طريق الحيلولة بينها وبين تاريخها القومى . إنهم يعرفون جيداً أن الشعور القومى عند الأمم المحكومة يأخذ فى الخمود والتضاؤل كلما أسدل النسيان سدوله على « التاريخ القومى » إلى أن ينعدم تماماً بنسيان التاريخ الخاص نسياناً تاماً

أما عودة الشعور القومى إلى مثل هذه الأمم المحكومة فلا تتم إلا باستعادة الذكريات التاريخية . إن حركات النهوض والانبعاث وجهود الاستقلال والاتحاد عند تلك الأمم تبدأ بوجه عام بتذكير الماضى واستلهام التاريخ . استعرضوا تواريخ استقلال الأمم التى كانت مغلوبة على أمرها ، ثم نهضت وتخلصت من ربقة الاستعباد تفهموا جيداً منها أن حب الاستقلال يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود ، والتوقان إلى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ، كما أن الايمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ؛ والنزوع إلى الاتحاد تزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة ...

ومما يجب أن يلفت أنظارنا فى هذا المضمار أن خطة استلهام الماضى والاستفادة من التاريخ تظهر للعيان حتى فى أعمال الأمم التى تقوم بثورات عنيفة وتحاول قلب حياتها الاجتماعية رأساً على عقب بصورة جدية وفورية . إن تلك الأمم تثور فى حقيقة الأمر على « الماضى القريب » وحده ، وتحاول فى خلال ثورتها هذه أن تستمد قوة من الماضى البعيد . أنعموا النظر فى تاريخ ثورات ووثبات تلك الأمم — مثل اليابان وتركيا الحديثة — تجدوا فيها أيضاً ، بجانب حركات التجديدات الجندية ، اهتماماً متزايداً بالأبحاث التاريخية ، وتغلغلاً مستمراً فى استخدام التاريخ لتقوية الروح القومية وإيجاد النزعات التجديدية

إن أمر الاهتمام بالتاريخ والالتفات إلى الماضى ليس من الخطط الخاصة بالأمم التى كانت فى حالة تأخر وسبات ، بل هى من الأمور التى تشمل جميع الأمم بدون استثناء . تعمقوا فى دراسة أحوال أرقى الأمم العصرية ، وأنعموا النظر فى أحسن الشوارع والميادين فى أرقى المدن الحديثة تجدوا فى جميعها آثار اهتمام عظيم بالماضى والتاريخ ، تجدوا فى جميعها عدداً كبيراً من الأنصاب والتماثيل والألواح التذكارية وسلسلة طويلة من المهرجانات والاحتفالات يقصد منها تذكير الماضى للناس ، وترسيخ التاريخ فى الأذهان

ولهذه الأسباب كلها أقول فى كل حين : إن الماضى منبع فياض للمستقبل والتاريخ قوة مهمة فى حياة الأمم

ولهذه الملاحظات رأيت من الواجب على فريق الكشاف العربى أن يذهب إلى سامرا ليقضى يوماً كاملا فى التجوال بين أطلالها ، ويطلع على الآثار الباقية من عهد الامبراطورية العربية العباسية فيها ، ثم يعود إلى هنا ليجتمع معنا فى هذه البيئة التاريخية ويتأمل مدة فى ماضى أمتنا العزيزة ، ويستمد من ذكريات هذا الماضى قوة جديدة لجهوده القادمة . ولهذا أقدمت على تحيته باسم دائرة الآثار القديمة

* * *

إننى لا أحب المغالاة فى مثل هذه الأمور ، بل أنزع دائماً إلى مجابهة الحقائق من كل وجوهها . وبعد أن شرحت لكم ما أعتقده فى خطورة الدور الذى يلعبه التاريخ فى حياة الأمم أرى من واجبى أن أقول لكم كلمة عن مضاره أيضاً ، لكى أحذركم منها

إن الحياة الاجتماعية غاية فى التعقد ؛ والعوامل الاجتماعية فى منتهى التشابك . ولذلك قلما نجد بين تلك العوامل ما هو مفيد على الاطلاق ، ومجرد عن الشوائب والأضرار فى كل الأحوال . إن الفوائد والأضرار فى الحياة الاجتماعية تتشابك بشكل غريب ،

فاقتطاف الفوائد مع توقى الاضرار يحتاج إلى يقظة كبيرة وانتباه شديد فى معظم الأحوال

إن تأثير التاريخ والماضى فى حياة الأمم ، لا يشذ عن هذه القاعدة العامة ، فانه أيضاً قد يصبح مضراً فى بعض الأحوال

فان التاريخ يكون مفيداً عند ما يفرغ فى شكل « قوة دافعة » تحركنا إلى الأمام كما ذكرت لكم ؛ غير أنه يصبح مضراً إذا أخذ شكل « قوة جاذبية » تدعونا إلى العودة إلى الوراء . فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضى هدفاً نتوجه نحوه ، ونسعى للعودة إليه ، بل يجب علينا أن نجعل منه « نقطة استناد » نستند إليها فى سيرنا إلى الأمام ، يجب علينا أن نكون منه قوة فعالة حافزة تدفعنا نحو المستقبل الجديد ، وبتعبير أوجز : شعارنا فى هذا الباب يجب أن يكون : « تذكر الماضى ، مع التطلع إلى المستقبل دائماً »

واسمحوا لى أن أشرح لكم قصدى من هذا الشعار بذكر بعض الأمثلة :

كلكم تعلمون أن سيرة خالد بن الوليد من أجلّ السير التى سجلها التاريخ ، فيجب علينا أن ندرسها بكل اهتمام ؛ ولكن لماذا ولأى قصد ؟ ألقصد الحصول على دروس فى فنون التعبئة والحرب ؟ كلا ؟ فان الخطط الحربية التى كانت تضمن النجاح والنصر فى عصر خالد بن الوليد لا يمكن أن تفيد فى هذا العصر بوجه من الوجوه . ولا مجال للشك فى أن الخطط الحربية التى تضمن النصر والنجاح فى عصر الدبابات والطيارات والغواصات والمدافع الضخمة والقذائف الهدامة والغازات الخانقة — تختلف كل الاختلاف عن الوسائل التى كانت تؤدى إلى النصر فى حروب العصور السالفة . فكل من يحاول أن يجد فى خطط خالد بن الوليد دروساً فى فنون الحرب قابلة للتطبيق فى العصر الحاضر يكون قد أقدم على عمل لا يتفق مع العقل والمنطق

غير أنه يجب أن نعرف أن الحروب لا تتم بالوسائط والقوى المادية وحدها ، بل إنها تحتاج إلى قوى معنوية متنوعة فضلاً عن القوى المادية ، أهمها : الوطنية الصادقة ، والايمان بامكان النصر مع الإقدام على إحرازه بحزم وثبات ، وجرأة وشجاعة لا تتأخر عن نوع من أنواع التضحية . إن هذه القوى المعنوية لعبت ولا تزال تلعب دوراً هاماً فى الحروب فى جميع العصور ، مهما كانت الوسائط المادية المستعملة فى خلالها ، سواء أكانت من نوع السهام أم الدبابات ، أم الجمال أم الطيارات .

إن سيرة خالد بن الوليد مملوءة بأمثلة عليا عن هذه القوة المعنوية ؛ وإذا ما أقدمنا على درس سيرة خالد بن الوليد يجب أن ندرسها لكى نستفيد من تلك القوى المعنوية ؛ وإذا ما بحثنا عنها يجب أن نبحث عنها بقصد استثارة قوى معنوية مماثلة لها ، لا بقصد محاولة الحرب على الطريقة التى مشى خالد بن الوليد عليها

وكذلك كلكم تعلمون بأن أجدادنا العظام أسدوا إلى الطب من الخدمات ما لا ينساه التاريخ ، فيجب علينا أن ندرس تلك الخدمات ، ونطلع عليها ونتذكرها دائماً ، ولكن لماذا ؟ وبأى قصد ؟ هل يجوز لنا أن نفعل ذلك بقصد الاستفادة من آراء كبار أطباء العرب فى مداواة الأمراض ؟ لا مجال للشك فى أن ذلك يكون فى منتهى السخافة . يجب علينا أن ندرس خدمات العرب للطب ، لا بأمل أن نجد فى اكتشافاتهم ما يفيدنا فى أمر التطبيب والمداواة ، بل لنزداد مباهاة بأعمال أجدادنا العظام ، ولنزداد إيماناً بحيوية أمتنا الكامنة ، ولنحصل على دوافع باطنية تحفزنا على القيام بخدمات تشبه خدماتهم التالية . إن أطباء العرب القدماء خدموا الطب خدمة كبرى ، ومشوا فى مقدمة العالم فى هذا المضمار قروناً عديدة . إن خدمات هؤلاء يجب أن تولد فى نفوسنا طموحاً لإحراز مكانة عالية فى الطب الحديث ، مثل المكانة التى كان أحرزها هؤلاء فى العصور التى عاشوا وعملوا فيها

ولذلك قلت إنه يجب علينا أن نستمد من التاريخ قوة معنوية ، تثير فى نفوسنا نزعات التقدم إلى الأمام ، وتحفزنا إلى العمل لمجد المستقبل

أما أهم النزعات التى يجب أن نستلهمها من التاريخ فهى فى نظرى الايمان بحيوية الأمة العربية ، وبإمكان حصولها على مجد جديد لا يقل شأناً عن المجد الذى كانت نالته فى سالف العصور

إننا فى حاجة إلى مثل هذا الايمان فى هذا الزمان أكثر من أى زمان آخر ، لأن المصائب انصبت على العالم العربى من كل حدب وصوب . ومن المعلوم أن كثرة المصاعب والمصائب تفتح باباً إلى تسرب الفتور والقنوط إلى القلوب التى لا تتجهز بالأمل القوى ، ولا تتقوى بالعقيدة الراسخة

ونحن نعلم أن الأمل من أهم عوامل السعي والعمل ، وأما القنوط فهو من أفعل دواعي التقاعد والشلل . ولهذا السبب نستطيع أن نقول : إن تطهير القلوب من شوائب الفتور والقنوط وتجهيزها بالأمل والإيمان يجب أن يكون من أهم أهداف العاملين ، ولا سيما فى الظروف التى أحاطت بالعالم العربى فى خلال هذه السنين

وبهذه الوسيلة ، وقبل أن أختم كلمتى هذه أود أن أذكركم بإحدى الأساطير اليونانية ، وهى « أسطورة باندور » :

باندور كانت إلـهة جمة الخصال تكونت من عطايا جميع الآلهة : أعطتها كل إلـهة من الآلهة الموجودة فى ذلك الحين شيئاً من خصالها ، ولهذا السبب سميت هذه الإلـهة الجديدة باسم (باندور) بمعنى « عطية الكل »

عندما غضب جوبيتير على هرقل وأراد أن ينتقم منه فكر فى إغرائه بواسطة باندور ، فسلمها علبة سحرية ، وطلب إليها أن توصلها إليه من غير أن تفتحها وتطلع على ما فيها . وحملت باندور هذه العلبة ، غير أنها لم تستطع أن تتغلب على ميل الاستطلاع فى نفسها ، ففتحت العلبة فى طريقها ؛ وعند ذلك أخذ يخرج من العلبة جيش عرمرم من المساوىء والشرور ، وينتشر فى الأرض بسرعة العاصفة مع أزيز هائل . اندهشت باندور من كل ذلك ، وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لإعادة إقفال العلبة بسرعة ؛ غير أنه قد خرج من العلبة جميع الشرور قبل أن تتمكن من ذلك ، ولم يبق فيها إلا شيء واحد ، وكان ذلك الشيء الذى بقى فى العلبة مقابل جميع تلك المساوىء والشرور هو « الأمل »

إن حالة العالم العربى الآن تشبه الحالة التى حدثت عند انفتاح علبة باندور المذكورة فى هذه الأسطورة . لقد انتشرت المصائب والشرور فى العالم العربى ، ولم يبق بين أيدى أبنائه شيء غير « الأمل » ، فيجب علينا ألا ننسى أن الأمل هو من أهم عوامل العمل ، ولا بد أن نحرص عليه كل الحرص فلا نترك سبيلاً إلى تسلل القنوط إلى قلوبنا . فليكن قلب كل واحد منا شبيهاً بعلبة باندور « يحفظ الأمل » بل لا يكتفى بحفظه فيسعى إلى تغذيته وتقويته إلى أن يتحول إلى « إيمان لا يتزعزع » يدفعنا إلى العمل المتواصل بروح التضحية والاخلاص .

ساطع الحصرى

إلى الأستاذ الزيات

تكيف الأخلاق الفاضلة

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— بلى يا محمود ! وهل تشك فى ذلك ... ! إن الأخلاق الفاضلة هى مبعث كل سعادة ، وأس كل نجاح ، ولولا فضيلة الخلق لكان للعالم شأن غير هذا الشأن . فهى الصخرة الناشزة فى طريق الكفر التى تحطمت عليها أصنام الوثنية فى قريش ؛ وهى القوة العظيمة التى بدّلت نواميس الطبيعة التى لا تتبدّل يوم هرب موسى بشعبه من ظلم فرعون الطاغية ؛ بل هى العدة الوافرة التى تسلح بها المسلمون فى جهادهم فجعلت سيوف المشركين فى أيديهم خشباً ، وحملها العرب فى فتوحاتهم فإذا بها لغم تداعت له جوانب الإيوان وشرفاته ، وتلاشت فيه أبهة التاج ومجوهراته . ولكن ما العمل فقد تطور الحال ، واستحال الزمان ، ولم يعد ابن الأمس — المتوحش على زعمنا — فى قياس هذا العصر بإنسان ، ولا أخلاقه الرجعية بالتى ترجح فيها كفة الفضيلة فى الميزان ؟

يا أخى ! إنها « لموضة » تعم كل شيء ، وتجتاح كل ما فى سبيلها ، وتخضعه لحكمها ؛ فلا فرق فى ناموسها بين الأخلاق الفاضلة والسراويل المخرفجة التى يلبسها خصيان الأتراك . ومتى انتشرت « الموضة » فعار على الإنسان أن يتخلف عنها . ولقد نظرتُ فى تاريخ المدنية فرأيت فيه أزياء من الأخلاق بعدد « موضات » اللابس ، ورأيت أن الأخلاق تتكيّف بالزمن وملابساته ، تكيف الجسم بالمحيط ومؤثراته . وما تعمل الأخلاق غير هذا ... إنها مكرهة عليه لتحتال لنفسها على البقاء وتنجو من يد الفناء ، فهو طريقها فى شهوة الخلود ، ولا محيص لها عن سلوكه . ألا فانظر كيف يقلم الإنسان أظفاره لاستغنائه عنها ، ويدرمها « بالمونيكير » مجاراة للموضة ، وكيف حسر عن رأسه ليظهر شعرهُ السبطُ اللامعُ المطيب بأطايب « الموضة » أفلا يسفر بعد هذا عن أخلاقه ! ... ولقد نظر فى ناموس

الأخلاق ، فرأى أن الفضائل التي كانت فيما مضى قائمة به إلى معالي الأمور ، حافزة له على عظيم المآثر ، هي القاعدة به اليوم عن عالي الرتب ، وعريض الجاه ؛ وهي السالكة به طريق الفشل ، والصادة له عن محجة النجاح ؛ فلا عجب بعد هذا أن يتنكب جادّتها ، ويصد عن ورد شرعتها ؛ فالكرمُ الذي كان يتهالك عليه المرء فيما مضى ، إذ كان طريق السؤدد ومحمدة ما فوقها من محمدة أصبح اليوم — في عرف هذا العصر — تبذيراً وهوساً . وأعوذ بالله ممن يرميه الناس بالتبذير ، ألا يتهمونه بالهوس ؟ والحلم أصبح ضعفاً وعجزاً ، والتقوى تزمتاً ورجعية ، والحياء نقصاً في الرجولة وأنوثة . وما الفضائل الجلى ، والحظوة البالغة ، والمكانة السامية إلا في الطباع اللئيمة ، والكذب الصراح ، والتملق الشائن ، والخلق اللدن ، والمثالب الفاضحة ، والسفالة الواضحة .

هي الأخلاق تنصهر بالموضة وتميع ، ومتى ماعت جرت — حسب قوانين السوائل من فوق إلى تحت — من ذروة سمو النفس ، إلى دركة حيوانية الطبع ، وتشكلت بشكلها والعياذ بالله !

أين ذاك الزمان الذي كان يتنافس فيه الأقران على اجتذاب حبل الفضيلة بوأد حيوانية الطبع ، وعلى سمو النفس بصلب سفالة الشهوة ، وعلى زعامة الخلق بإنكار أنانية الذات ، من هذا العصر الذي تدلت فيه معنويات الفضيلة ، فحبل الشهوات البهيمية على الغارب ، وخسة الطبع والقحة هما من الأخلاق في ذروتها ، والتبجح الكاذب مدار الحديث في كل مجلس وناد ؟ والأغرب أن الناس إنما يتجاحشون على الرذيلة باسم الفضيلة ، ويتمرغون في حمأة الموبقات باسم الأخلاق ، ويرتكبون اللتيا والتي باسم التجديد ! التجديد الذي شمل الأخلاق وعم الفضائل ، فحور فيهما وبدل ، ما حور وبدل في الثياب

استعرض الناس على اختلاف طبقاتهم وبيئاتهم ، وانظر علامَ يتجاحشون ! أعلى الصدق وهم يرونه آفة على جمع المال الذي احتكرته الخاتلة والخداع ؟ أم على الحياء وقد أصبح صاحبه مقروناً بالحرمان ، كما أصبحت الحظوة من مدلولات القحة ؟ أم على الكفاية وقد تغير مقياسها — بتغير الموضة — ولم تعد دليلاً على مقدار رسوخ قدم صاحبها في العلم والعرفان ، ولا على مقدار ما في نفسه من معنويات الشرف ، وطهارة الوجدان ، وإنما على مقدار ماله من جاه عريض ، وأصل أثيل ، وعلى عدد ما في بطانته من أرباب الرتب الملحوظة ، والألقاب الضخمة ، والشخصيات المنفوخة : إن صحّ هذا التعبير كالأفندية ! والباكوية ! والباشوية ! كلا ليس على شيء من هذه الفضائل يتجاحشون ، ولِمَ يتجاحشون عليها وهم يرونها — جميعها — قد اختلطت ، وتفاعلت ، وتركبت في جوهر واحد فقط هو الوظيفة ؟

أفلا تراهم يشترون أحط الوظائف دركة بماء وجوههم اللدنة ونخاسة سمعتهم السافلة ، وفضيلتهم الداثرة ، حتى إذا ظفروا بها بطروا ، وضحوا في سبيل استبقائها والحرص عليها بجميع أخلاقهم وبضمائرهم الموبوءة ، وما ذلك إلا ليكونوا من ذوي الزلفى ، وليثملوا بنشوة الغرور ، إذ يقول فيهم الناس ، تزلفت إلى البيك في الديوان وزرت الأفندي في الديوان ، وتوسطت في الأمر لدى الباشا في الديوان

قد يسوءك الأمر ويغمك ، ولكن الأخلاق الفاضلة غير مسئولة عن ذلك لأنها تطورتْ وأنت تحجرتَ — في عرف أهل الموضات — وتقدمتْ فتخلفتَ

يا أخي ! لقد تلقحت أخلاقنا الفاضلةُ الأصيلة بأخلاق سفلة الشعوب الوضيعة فنغلت وصارت كالخنثى ، لاهو ذكر ولا أنثى ، بل كالبغل ليست فيه أصالة الحصان ولا ضعف الأتان

هي « الموضة » ياعزيزي ... ! وقد أبت الأخلاق إلا أن تتكيف بها ، فتصبغت وتطينت ثم تدلت وانتهت إلى هذه الحالة التي تشكو منها . وما شكاتك إلا شكاة الفضائل بأسرها ، والأخلاق العالية بكاملها . هي « الموضة » وعبثاً يحاول الإنسان أن يجاري المدنية ولا يجاريها ، فهي من مقوماتها الأولى ، ومستلزماتها الرئيسية

أفبعدَ هذا — يامحمود — تطمح إلى النجاح في القرن العشرين وعدتك له عدة الجدود الغابرين ؟

(شرق الأردن) خليل جمعة الطوال

صور وخواطر

بعـــد المرض

للأستاذ على الطنطاوى

... يقولون إن الإنسان يأكل ليعيش ، ولكنى أعيش فى هذه الأيام لآكل . آكل بشراهة ونهم ، حتى أحس الامتلاء ولا يبقى فى المعدة مكان لذرّة ... فأدع الطعام آسفاً ، وأنظر إلى الأطباق وما فيها نظرة المودّع الحزين ، ثم أقوم إلى كتابى فأفتحه ، أو إلى شباكى أطلّ منه ، أتلهى بهذا أو بذاك حتى أحس أو أتوهم أنى أحس جوعاً ، فأدعو بالطعام ، أو تمضى ثلاث ساعات ، فآكل ولو لم أكن جائعاً ... ألم يقل لى الطبيب : كلْ ، كلْ كلّ ثلاث ساعات ؟!

ذلك لأنى لبثت عشرين يوماً أشتهى قطعة الخبز ، فأطلبها وألح فى طلبها ، فتمتنع عنى ، وأحرمها فأراها فى منامى ، وأحلم بها فى يقظتى تجسمها لى أمانىّ وأفكارى ، فأتخيل أنى قد نلتها ، فإذا أنا لم أنل إلا هذا اللبن (الحليب) الذى برمت به واجتويته ، والذى يفضل المريض رؤية عزرائيل على رؤيته يطالعه فى الصباح وفى المساء ، والذى كرهت لأجله كل أبيض ، حتى بياض الفجر وبياض النحر ... والذى أصبح قذًى فى عينى لا أطيق رؤيته ، وسمًّا فى فىّ لا أقدر على تذوقه ... ثم فرّج الله عنى بعد الضيق وأنالنى ما أشتهى من الأطعمة وأريد ، فكيف لا أهجم عليها بشراهة ونهم ، وكيف تبلغ بى الحماقة أن أقوم عن المائدة وفى الأطباق بقية ؟

* * *

لا أكاد أشبع من الطعام ولا من القراءة ، ولا من النظر فى هذا الفضاء الفسيح ، وهذه الجنات المتسلسلة تبدو من شباكى يعانق بعضها بعضا ، حتى يستاق آخرها فى أحضان قاسيون . لا أكاد أشبع من شئ ، لأنى خرجت من هذا المرض كمن ولد ولادة جديدة ، فهو لا يعرف الدنيا قط وهو ينظر إليها بعينى طفل ذكي يدهشه كل شئ ويود لو يمتلكه ويأكله أو تحتويه يده ... ولأنى خرجت منه ضعيفاً مهدوداً ، ولقد كنت من قبله قوياً نشيطاً . استحممت يوماً فى البحر ، ثم خرجت منه متوثباً متحفزاً ، أكاد أطير مما أحس فى جسمى من النشاط ، فسرت على الشاطئ حتى حاذيت الصخرة (الروشة !) ، تلك الصخرة القائمة فى البحر كأنها الطاق العظيم ، أو كأنها قوس نصر ، أقامه الماء الهيّن الليّن الذى انتصر بصبره وثباته فى جهاده ، على هذه الصخرة العاتية المتكبرة ، فجعلها فارغة جوفاء ، ولا تزال على عتوها وكبرها سنة الله فى المتكبرين ، لا يكونون إلا فارغين ... تلك التى يدعونها فى بيروت صخرة الانتحار ، لأن المجانين أعداء أنفسهم وأوطانهم ، يلقون بأنفسهم منها يثبون إلى ... إلى جهنم ! وكانت الشمس مائلة إلى المغيب ، تمنح البحر آخر هباتها ، فيبدو براقاً لامعاً ، قد لبس حلّة من النور ، فأكبرت هذه المخلوقات : الشمس والبحر والصخر ، ووقفت صاغراً حيال عظمة الطبيعة وجلال الطابع (جلّ جلاله) ، ثم غلب علىّ هذا النشاط الذى أحسّ ، وبلغ دماغى فملأه ادعاء وكبراً وغروراً ؛ والمرء فى فكره وعواطفه خاضع أبداً لحالة جسمه ، ودرجة صحته ، فرأيت هذا الصخر إلى زوال قد عبث به الماء ، والماء إلى ذهاب قد بخرته الشمس ، والشمس إلى غياب قد ابتلعها البحر ، ورأيتني وجدى الذى يبقى ، أنا الذى فتّت الصخر ، وأنا الذى أذلّ البحر ، وأنا الذى اتخذ الكون كله معمل تجارب لعقله وسخّره لمنفعته ، وأنا الذى يحوى فى صدره عالماً أكبر من هذا العالم ، ونوراً أبهى من هذه الشمس وعواطف أعمق من هذا البحر ، وأرقّ من هذا الماء ، وأشد من هذا الصخر ...

وذهبت إلى المدرسة ، وأنا أقول (أنا) ، والعياذ بالله من (أنا) فإنها كلمة إبليس ... ذهبت ماشياً فأكلت من ساعتى أكل من لبث فى البحر ساعتين ، ومشى ساعة كاملة ، من (الروشة) إلى الحرج ، وكانت سكرة النشاط ، ونشوة (أنا) لا تزال ضاربة فى رأسى ، فذهبت مع الطلاب أمشى وأعدو وأثب ، وأفعل كل ما لا يفعل عاقل ، ولم أعد إلى المدرسة إلا غارقاً فى العرق فشربت قازوزتين(١) مثلجتين من (القازوز) ، وصارعت ... واغتسلت بالماء البارد ، ونمت فأصبحت مريضاً !

* * *

(١) القازوزة . القارورة الصغيرة

يا لهذا المغرور الأحمق الذى أصاب ذرة من العلم ، وعبث بالكون عبث الوليد ، يرفع ويضع فلم يعد يرضيه إلا أن يدّعى الألوهية ، أو (يؤله هذا العلم) ... يا لهذه القوة الكاذبة ، وهذه السطوة الفارغة ، هذا القوىّ الجبار الذى فتت الصخر ، وأذلّ البحر ، يذله مخلوق من أصغر مخلوقات الله ، لا تراه لهوانه العين ، يعيش الملايين منه فى قطرة ماء ، مخلوق واحد من أضعف المخلوقات يلقى الإنسان محطوماً ، ويطيّر هذه الأفكار كلها من رأسه حتى يعود ذليلاً خانعاً ... فكيف ويحك لو أصابك الله بعذاب من عنده ؟ يا للأحمق المغرور !

* * *

أصبحت فإذا أنا قد نسيت أفكار الأمس ونسيت الأمس كله وأحسست بالبعد عن الدنيا التى آلفها وأحبها . ولقد انقطعنا مرة فى قلب جزيرة العرب ، وتهنا فى رمالها الموحشة سبعة عشر يوماً نسير وراء حدود العالم مع الوحش والآكام ، والشمس والعطش والموت ، فما أحسست بأنى بعيد عن الدنيا ولا بلغ بى ذلك كله ما بلغ بى هذا المرض القصير ... لقد أصبحت بلا ماض ولا مستقبل ولا حاضر إلا هــذا الحاضر الضيق الأليم الذى يستقر فى بطنى حيث (الزائدة) الملتهبة ، وفى خاصرتى حيث الرمل فى الكلية . اصطلحت علىّ العلل ، واجتمعت المتناقضات ، فالالتهاب لا يطفئه إلا كيس الثلج ، ونوبة الرمل لا يصلحها إلا الماء الحار ، فإن داويت هذه زدت تلك ، وإن عالجت تلك انتقضت هذه ...

* * *

أنسانى المرض كل شىء ، حتى ما أذكر أنى كنت يوماً من الأيام أمشى وآكل وأشرب واقرأ وأكتب وأمارس أنواعاً من الرياضة ، ولا أذكر أنى كنت أستطيع التفكير فى آلاف المسائل وأعالج الثات من الأمور ، وماتت الدنيا فى عينى ، وأصبح هــذا الألم دنياى كلها ، فأنا أطلق الفكر من عنانه ، فلا يخرج عنه ، ولا يجول إلا فيه ، يتخيل أبشع أنواع المرض ، وأفظع ألوان الخطر ثم ينطلق الفكر إلى العملية التى أكد الأطباء أنه لا بد منها ، فلا يكاد يشرع فى تصورها حتى تسود الحياة فى عينى ، وأراها كلها ألماً وشراً ، وأتمنى أن لو كان أبى على مذهب المعرى ، أو لو أن أمى لم تلدنى ... ويوسوس لى الشيطان أن ما حق أبيك فى أن يقضى عليك فيجىء بك ، أليست حياتك متعلقة بك وحدك ؟ فهل استشارك فيها ، أو هو قد ضحى بك وبحريتك وسعادتك فى سبيل لذته ، أو هو لم يفكر فيك أبداً ، ولم تخطر له على بال ؟ ... فأرى الشيطان يريد أن يزيدنى على مرض جسمى مرض دينى ، فألعن الشيطان وما جاء به ، وإن مما يجىء به الشيطان لما يسمونه فناً وابتكاراً وتجديداً ، ولكنه يبقى أبداً فناً شيطانياً ... أدع هذا وأعود بفكرى إلى سرير العمليات الذى حملنى اليه المدير مرة ووكل بى الممرضات ، وأقام علىّ طالبين يحرساننى ، وذهب إلى الطبيب يحضره فوثبت أحمل أوجاعى وأناضل دون حريتى حتى بلغت الشارع حافياً ، وركبت إلى الكلية أول سيارة رأيتها وأنجانى الله من العملية والأطبــاء . والأطباء — والرجاء عدم المؤاخذة — قوم برئوا من العاطفة وانبتوا من الشفقة[1] يشقون بطون النــاس — نسأل الله السلامة — ويخرجون أمعاءهم فيضمونها فى طبق ... ويكسرون جماجم البشر ، ويعبثون فى أدمغتهم ويفعلون ما لو فعله غيرهم للحقه الشرط ، واصطف له القضاة ، وفتحت له أبواب السجون ، وأعدت له حبال المشانق ؛ ثم يتصدرون المجالس يفتخرون بأنهم أصــدقاء الانسانية ... أفأعطيهم بطنى ليشقوه ، ويردونى مريضاً بعد إذ أنا معافى وأتعجل الداء بنفسى ؟ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين

* * *

لم يكن يفزعنى شىء وأنا مريض مثــل ما يفزعنى الليل بسواده وامتداده . كنت أخافه أشد الخوف ، وأحسب لمجيئه الدقائق والثوانى ، وأرقبه كما يرقب المحكوم ساعة القتل ، ذلك أنى لم أكن أستطيع النوم ولا أطيق الجلوس ، وإنما أستطيع أمراً واحداً ، هو الاضطجاع على قفاى أحدّق فى السقف ليلاً ونهاراً ... ولطالمــا رأيت فى السقف بقعة سوداء ، فخيل إلىّ لطول التحديق فيها ، أنها حية تريد أن تنقض علىّ أو رتيلاء كبيرة ذات تسع وتسعين رجلاً وعشرة رءوس ، أو مجموعة من

(١) هذا لسان الأدب ، أما لسان الحقيقــة فينطق والله بشكر كبير جراحى بيروت الدكتور محمد خالد ، وكبير جراحى دمشق الدكتور الأديب مرشد خاطر ، وشــكر الحكيم البارع الدكتور حسيب يازيد على وجه التخصيص ، فهو رجل وضع الله الشفاء فى شخصيته العجيبة كما وضعه فى علمه الجم . أما ابنا عمى الطبيبان فهما منى ولا يشكر امرؤ نفسه ..

المقاوب أو عفريت من الجن، أو جنى من العفاريت، فأصيح فزعاً وأطلق أهذى هذيان محموم حرارته أربعون ...

إني لأضحك الآن، وأكركر من الضحك حين يعيدون عليّ ما كانوا يسمعون مني إذ أهذى، وأرى فيه صورة واضحة لكثير مما تقرأ في الصحف والمجلات ينشره أصحابه على أنه أدب، ويقرؤه الناس على أنه ثرثرة وهذيان محموم!

وكان أحبّ شيء إليّ وأنا مريض أن يكثر الناس من حولي، ثم يتحدثوا شتى الأحاديث لأخلص من وحدتي وأتسلى عن ألمي وأذكر جانباً مما في الحياة ... ولكني كنت أسمع أصواتهم كأنها خارجة من جوف بئر سحيق، أو أعماق مغارة بعيدة، وأراهم من خلال ضباب كثيف، فلا أتبين صورهم ولا أصواتهم، وسرعان ما أملّ منهم وأطلب جديداً. كانت أيامي متشابهة متشاكلة، فكنت أحب أن أجد كل لحظة شيئاً جديداً

ضعفت قواي وضاعت إرادتي ولم يبق لي طاقة على المشي، ولا قدرة على المحاكمة العقلية، ولم يبق حياً فيّ إلا لساني ... أكل ذلك لأن جرثومة صغيرة دخلت جسمي ...؟ بالضعف هذا الإنسان القويّ!

* * *

تألمت في هذا المرض لكني تعلمت. تعلمت في الحياة درساً جديداً، وما الحياة إلا دروس ... هو أن المرض نعمة ليس بنقمة، وأنه لازم للإنسان لايدرك قيمة الصحة ولا يعرف معنى الحياة ولا يرجع إلى نفسه إلا إذا مرض، هنالك يدرك معاني هذه الأشياء التي يمرّ بها وهو صحيح مراً سريعاً لأنه مشغول عنها بما لانهاية له من الصغائر والترهات، وإن للمريض — قبل لذة الصحة — لذتين، لذة هذا العطف الذي يحاط به والحب الذي يغمره، ولن أنسى أبداً عطف مدير الكلية وناظرها عليّ وحبّ الطلاب إياي وإني لأسيغ ذكرى الألم إذا تصورت هذين الطالبين اللذين كانا يقيمان الليل كله بجانبي، إذا قلت آه أو انقلبت من جنب إلى جنب كانا واقفين أمامي. آثراني على أهلهما وفضّلا راحتي على راحتهما، أما عطف إخوتي وأهلي فلست أذكره ...

ولذة أخرى، وهي اللذة الكبرى التي يجدها ساعة يلجأ إلى الله، ويدعوه مخلصاً مضطراً، وكنت إذا وصف لي مريض به مثل ما بي اليوم، يُدار بي من الرثاء له، والخوف مما هو فيه فلما غدوت مريضاً، لم أجزع ولم أخف، وكانت تمر بي لحظات أضيق فيها بهذا القيد إلى السرير وهذا الألم، ويبلغ بي الضيق في الليل أقصاه، ولكنها كانت تمر بي لحظات كنت أرضى فيها كل الرضى، وأفيء فيها إلى ربي، وأرى ما أنا فيه امتحاناً لصبري، ونعمة من الله تزيد في أجري، فأطمئن ويبلغ بي الأمر إلى أكثر من الاطمئنان إلى نوع من اللذة الخالصة لا أشعر بمثلها في الصحة وإلى لون من النشاط والقوة لا أعرفه قط وأنا معافى، وأحسب أن لو أصبت بأشد الأمراض وأقواها، وأنا أقدر على هذا الرضا، وأحس هذا الاطمئنان لما وجدت فيه إلا لذة. هذا ما كنت أجده لا أبالغ ولا أتخيل، فأرجو أن يصدقني القراء، وهذه نعمة من نعم الله الخفية على الانسان، ومظهر من مظاهر القوة الهائلة التي أعطاه، فلا يحكم الانسان على المريض أو البائس بظاهره. فيشك في عدل الله ورحمته، ولكن ليدخل إلى الداخل، لعل وراء الجدار الخرب قصراً عامراً، ولعل خلف الباب الضخم كوخاً خرباً، ولعل في هذه الثياب الرثة، وهذا الجسم الممزّق البالي نفساً مشرقة سعيدة وإنساناً كاملا ...

* * *

وتعلمت من المرض أن المساواة التامة هي سنة الله في الحياة. أنظروا المرض هل يعرف غنياً أو فقيراً؟ هل يمتنع منه الملك الجبار رب القصر والحراس؟ وهل تمنع أبوابه وجنده هذا المخلوق التافه الصغير من الدخول؟ سد الأبواب، وأغلق النوافذ، وأقم الجند بالسلاح، وعش في صندوق مغلق، إنه يدخل مع الهواء الذي تنشقه، والماء الذي تشربه، والطعام الذي تأكله، ويحتل جسمك، ويعيش في عينك وفمك، ويسبح في دمك

ترفع عن المساكين، وتكبر على الفقراء يرجعك المرض إلى صفوف المساكين والفقراء، فتألم كما يألمون، وتصيح مثل ما يصيحون، وكل ما في الحياة يسوّى بينك وبينهم؛ هل تنشق أيها الغني من الهواء هواء معطراً، وينشقه الفقير بغير عطر، أم إن الهواء وهو قوام الحياة لك وله، قد سوى فيه بينك وبينه؟

التزوج بالغربيـــات

تحريمه بفتوى وقانون

لأستاذ جليل

هلاكُ الشيوخ والشبان منا معشر المصريين على التزوج[1] بالغربيات أجلَ أن نهدّم (قاصدين أو غير قاصدين، بُلْهاً أو متفلسفين) الأسرة المصرية بل الأمة المصرية — أجبر على كَتْب هذه السطور:

قال الله تعالى: « اليومَ أُحِلَّ لكم الطيبات، وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم، وطعامكم حلٌّ لهم، والمحصناتُ من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهنّ أجورهنّ محصنين غير مسافحين ولا مُتخذي أخدان[1] ومن يكفر بالايمان فقد حبط عملُه، وهو في الآخرة من الخاسرين »

صدق الله العظيم، وقول الله بيّن، وظاهرُه طوّع لاُعَقِ نكاحَ الكتابية: اليهودية والنصرانية. بيد أن لنزول الآيات أسباباً يوردها المفسرون، وقد يكون المغزى في آية غير ما يلوح أولَ وهلة. والصحابة والتابعون هم أدرى بكتاب الله ومراميه من تابعي التابعين ومن مجتهدين مولدين محدثين (وللمجتهد فضل وقدر وأجر) فقد جاء في (مفاتيح الغيب):

« كان ابن عمر (رضي الله عنهما) لا يرى التزوج بالذمية، ويحتج بقوله: (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ) ويقول: لا أعلم شركا أعظم من قولها: (إن ربها عيسى) ومن قال بهذا القول أجاب عن التمسك بقوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) بوجوه: (الأول) إن المراد الذين آمنوا منهم، فانه كان يحتمل أن يخطر ببال بعضهم أن اليهودية إذا آمنت فهل يجوز للمسلم أن يتزوج بها أم لا، فبين تعالى بهذه الآية جواز ذلك. (الثاني) روى عن عطاء أنه قال: إنما رخص الله تعالى في التزوج بالكتابية في ذلك الوقت لأنه كان في المسلمات قلة، وأما الآن ففيهن الكثرة العظيمة، فزالت الحاجة، فلا جرم زالت الرخصة. (الثالث) الآيات الدالة على وجوب المباعدة عن الكفار كقوله (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقوله: (لا تتخذوا بطانة من دونكم) ولأن عند حصول الزوجية ربما قويت المحبة، ويصير ذلك سبباً لميل الزوج إلى دينها، وعند حدوث الولد فربما مال الولد إلى دينها، وكل ذلك إلقاء للنفس في الضرر من غير حاجة. (الرابع) قوله تعالى في خاتمة هذه الآيات: (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين) وهذا من أعظم المنفرات عن التزوج بالكافرة، فلو كان المراد بقوله تعالى: (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) إباحة التزوج بالكتابية لكان ذكر هذه الآيات عقيبها كالتناقض، وهو غير جائز »

وروى محمد بن جرير هذا الخبر معنعنا:

(١) هلك على الشيء هلا كا إذا اشتد حرصه وشرهه

(١) متخذي أخدان: صدائق، والخدن يقع على الذكر والانثى (الكشاف)

هل تشرب ماء العيون معسولة مذاباً فيها السكر، ويأخذها الفقير ملحاً أجاجاً.. إن الهواء والماء والشمس والقمر والصحة والمرض والولادة والموت كل أولئك سطور خط فيها الله على صفحة الحياة: إن الناس متساوون. هل سمعتم أن ابن الملك يولد إذ يولد مرتدياً الحرير، يمشي على رجليه إلى سريره ويلقي بنفسه خطبة ميلاده، ويشرف من شباكه على شعبه، وابن السوق يولد أخرس عارياً؟ افتحوا القبر المجصص الفخم، وارفعوا ما فوقه من نصب وتماثيل وكتابات ونقوش هل تجدون فيه عظاماً تضوع بالمسك، وتفوح بالند، لأنها كانت تلبس الحرير، وترتدي الديباج؟

هذا ما تعلمته من المرض!

* * *

وبعد، فلقد أطلت الكلام، وآن أوان الطعام، ولا بد من قطع هذا الحديث! وأنا أحمد الله على الصحة والمرض، وأحمده على كل حال

« بيروت » علي الطنطاوي

« من نساء أهل الكتاب من يحلّ لنا ، ومنهم من لا يحل لنا ، ثم قرأ : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية) فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤه ، ومن لم يعط الجزية لم يحلّ لنا نساؤه »

فهذا الخبر يُحلّ نكاح النصرانية المصرية (القبطية العربية) لا النصرانية الغربية الأوربية ، الأمريكية ، و « حنانيك » كما قال الشاعر وجاء في مثل . وفصل الخطاب فى هذا الباب عندى وعند كل مصرى (مسلم أو قبطى) حريص على وقاية المصرية وصونها ونجاتها — هو خطة (الفاروق) — رضى الله عنه — فقد جاء فى (جامع البيان) :

« ... شهر بن حوشب قال : سمعت عبد الله بن عباس يقول : نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أصناف النساء — إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات — عن كل ذات دين غير الاسلام . وقال الله (تعالى ذكره) ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله . وقد تزوج طلحة بن عبيد الله يهودية ، وتزوج حذيفة بن اليمان نصرانية ، فتغضب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) غضباً شديداً حتى همّ بأن يسطو عليهما ، فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ، ولا تغضب ، فقال : لئن حلّ طلاقهن لقد حلّ نكاحهن ولكن أنتزعهن منكم صغرة قمأة »

***

إن هذا الشر ، شر نكاح الغربيات قد اشتد واستفحل بل استأسد ، فاذا لم يُدرك الناسَ فى مصر رجالُ الدين والدنيا وشيخ الاسلام ومفتيه وهيئة كبار العلماء ، بالدواء الناجع ، بالفتوى المحرِّمة ، والقانون المانع ، دارئين بذلك هذا البلاء ، هذه الداهية الدهياء ، هذا التزوج بالغربية — فحوقل[1] (أيها المصرى) واسترجع[2] ، واقرأ الفاتحة (على الأسرة) وقل السلام على (الأمة) !

وإنى فى هذا المقام أذكِّرُ عاملا بقول الله : « وذكِّرْ فان الذكرى تنفع المؤمنين » رئيس الدولة وشيخ الاسلام بأن (موسولينى) الطليانى و (هتلر) الجرمانى قد سارا سيرة (الفاروق) فى التحريم . فحرّم الأول على قومه نساء الأحبوش أو الحُبشان ، وحرّم الثانى بنات[1] يهود . وما لامهما فى الناس لائم . وحرى بمن امتلّ ملة (الفاروق) — ومن أعرف بدين الله من عمر ؟ — أن يستن بسنته ، وينقذ من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة بنى أمته ، والله يقول : « إنا لا نضيع أجر المصلحين » « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا »

اللهم ، إنى قد بلغت فى (الرسالة) الاسلامية ، العربية ، وقلت ، وذكّرت

اللهم ، اشهد

(الاسكندرية) (***)

---

(١) حوقل : قل : لا حول ولا قوة إلا بالله

(٢) استرجع : قل : إنا لله وإنا إليه راجعون

(١) بنات بفتح التاء وكسرها

***

اصلاح

فى الكلمة (حرق الميت) فى آية كريمة : « يا بنى إن تك مثقال حبة » وإنما هى : « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة الخ »

أقاصيص صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٣٩ —

حين يتصلّب قلبي ويتحرّق ، صب على رشاش رحمتك

حين ينزع الحنان من على الأرض ، إبعث إلى بنشيدك العذب

حين يعلو ضجيج العمل فيشمل كل مكان فيباعد بيني وبين الناس جميعاً ، أرسل إليّ – يا إلـه الصمت – فيض الهدوء والأمان

حين يخرّ قلبي الضعيف ساجداً فى عزلته ، افتح الباب – يا مليكي – وتعال إلى فى أبهة الملك

حين تعمى الرغبة الملحة قلبي وتنفث فيه الغواية ، إليّ – أيها القدس – فى برقك ورعدك

— ٤٠ —

لقد كفّ غيثك – يا إلـهي – عن قلبي الظمآن منذ أيام وأيام ، والأفق قفر ليس فيه غمامة رقيقة ولا أثر قطرة واحدة

وإذا شئت فانفخ من عواصفك الهجوم ما يحمل ريح الموت ثم املأ السماء بالبرق الخاطف

ولـكن رُدّ عنى – يا إلـهي – هـذه الحرارة المتسعرة الصامتة فهى فى شدتها وقسوتها تلفح القلب بنار اليأس القاتل

ثم دع سحائب الرحمة تنهل علينا من عل كأنها نظرات أم عطوف ترى الأب يتنزّى غضباً فتترقرق فيها عبرات الحنان

— ٤١ —

يا من أحب ، أين مكانك من وراء الزمن ، وأنت تتوارى فى ظلالهم ؟ إنهم ينطلقون على الطريق التَرب ، يمرون بك فلا يلتفتون إليك ؛ وأنا هنا أنتظر الساعات الطوال فى قلق وبين يدى الهدايا ، وحين يمرون بى يلتقطون زهورى واحدة واحدة وسلتى تكاد تفرغ

لقد تصرّم النهار ، وجاء الليل ينشر ظلامه ، والنعاس يداعب جفنيّ ، والناس ينطلقون إلى دورهم ، وفى أعينهم نظرات التهكم والسخرية ، وفى قلبي الخجل . إننى هنا أنتظر فى جلسة الشحاذ ، أرخى فضل ثوبى على وجهى ، وحين يستخبروننى أعرض عنهم فى صمت

أوه ، كيف أخبرهم بأننى أنتظرك وأننى منك على ميعاد ؟ كيف أستطيع أن أقول لهم إننى أقدم فقرى مهراً لك ؟ آه ، سأكتم كبريائى فى أعماق قلبي

أننى أقضى الساعات على الحشائش الخضراء أحدق فى السماء وأرخى لخيالى العنان أحلم بساعة اللّقيا الجميلة — فيخيل إلىّ أن النور يسطع وأن الرايات الذهبية تخفق فوق مركبتك ، والناس على جانبي الطريق يحدقون فى ذهول حين يرونك تهبط من عليائك لتنتزعنى من التراب ، ولتجلس إلى فتاة فقيرة ترتدى الأسمال ، وهى تضطرب من أثر الحياء والكبرياء كأنها حشرة تتهادى بين نسمات الصيف

إن الساعات تمر وأنا لا أحس صوت عربتك . كم حفل مر بى فى ضجة ولجب فيه سحر الأبهة ! أفتبقى أنت من ورائهم تتوارى فى صمت وأنا أقضى حياتى أنتظر عبثاً أبكى وقلبي يتفطر ؟

— ٤٢ —

فى بكرة الصباح سمعت همسة : ستبحر معه فى قارب ، أنتما معاً فقط ، وما فى العالم من يعرف شيئاً عن هذه السفرة ، فهى إلى غير غاية وإلى غير نهاية

فى أضعاف ذلك اليم اللانهائى وعند بسمتك الرقيقة الهادئة ستحور أغانىّ إلى لحن طليق كالموج ... لحن لا تحده الألفاظ

أفلم يأن لى ؟ أفلا تزال هناك ما يشغلك عنى ؟ يا أسفا ! لقد أسدل الليل أستاره على الشاطئ ونزع الطير إلى وكره

من يدرى متى ترفع السلاسل ويندفع القارب فيتوارى فى أحشاء الليل كأنه آخر شعاع من أشعة الطَّفَل ؟

— ٤٣ —

ما كنت أهيئ نفسى للقياك حين وجدت السبيل إلى قلبي ، فدخلت إليه – يا مليكي – دون إذن كأنك واحد من الشعب غريب عنى ، فطبعت على لحظات من عمرى بطابع الخلود

واليوم كشفت عن تلك اللحظات — على حين فجأة — فألفيتها منثورة على التراب وعليها خاتمك ومزاجها ذكرى أيام قليلة من حياتى الغابرة فيها الأسى والطرب فى وقت معاً

لا ترتد عنى محتقراً سنى طفولتى حين كنت ألهو باللعب فى التراب ، فإنه ليتراءى لى أن خطواتى وأنا أدرج فى حجرتى بين

السحب تشبه تلك التي يدوى صداها بين النجوم

— ٤٤ —

إن متعتى فى أن أجلس على جانب الطريق أنتظر وأرقب الظلام وهو يطارد النور ، والمطر وهو يتعقب صفاء الصيف

ورسلك يمرون بى وعليهم بشرى السماء يحيونني وينطلقون فى سبيلهم فيهتز قلبي طرباً وأنا أستروح النسمات الحلوة

من الفجر لدن النسق وأنا جالس بإزاء بابى لأننى أوقن بأن فترات السعادة آتية لا مرية فيها ، آتية حين أرى ...

فى هذا الحين سأخلو إلى نفسى أبسم وأترنم والهواء يتضوع بأريج الوعد

— ٤٥ —

أفلم تحس وقع خطواته الهادئة ؟

هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

فى كل لحظة وحين ، فى كل يوم وليلة ؛ هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

لقد شدوت بألحان كثيرة ما تزال رناتها تقول : « هو آت ... آت ... ودائماً هو آت »

فى اليوم الصحو العطر من شهر أبريل ، وعلى طريق الغابة هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

فى عبوس الليلة المطيرة من شهر يوليه ، وعلى مراكب السحب المزمجرة هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

إن خطواته هي التي تسحق قلبي فى لحظات الأسى والحزن ولكن لمسات قدميه الذهبية هى التي تبعث الطرب فى قلبي مشرقا

— ٤٦ —

لست أدرى منذ كم من الزمان وأنت تهفو تريد لقياى ؛ وما تستطيع شمسك ولا كواكبك أن تحجبك عنى إلى الأبد

ما يزال وقع قدميك يرن فى مسمعىّ كل صباح وكل مساء ، وما يزال وحيك يهتف فى قلبي ويناديني سراً

لست أدرى لماذا تضطرب حياتى فى هذه الأيام ، وفى قلبي نبضات السرور

لكأنى أرى الأيام تهم لتنجز عملى ، وأنا أستروح النسيم الحلو يبشرنى بقدومك

— ٤٧ —

أوشك الليـل ينحسر وأنا أنتظر عبثاً . إنى أخشى أن يحضر والفجر ، وقد غلبني النعاس والتعب معاً . فيا صاحبي دع الطريق أمامه مفتوحاً ولا تقف فى سبيله

وإذا لم توقظنى خطواته فلا تفزعنى أنت عن منامى ؛ فما أريد أن يزعجنى عنـد انبثاق الفجر ، لحن الطائر الغرّيد ، ولا زفيف الريح . ذرنى هادئاً فى نومى ولو جاء سيدى إلى بابى

أيها النوم ، أيها النوم اللذيذ ، إنك تنتظر لمسانه لتطير عنى .

آه ، سينفض نوره بسماته عن عينىّ ثقل الكرى ، وهو أمامى كأنه حلم لذيذ يلمع بين ظلمات الهجوع

فليأت أمام ناظرىّ كأول شعاع أضاء وكأول شبح بدا .

إن نظراته ستبعث فى حياتى العابسة أول هزات الطرب . وحين أعود إلى نفسى فلتكن عودتى إليه هو

— ٤٨ —

إن صمت الفجر العميق يمزقه رجع تغريد الطير ؛ والأزاهير نشوى على جانبي الطريق ، وبين تفاريق السحب تنثر الثروة الذهبية ؛ أما نحن فنهرع إلى العمل فى شغل لا نلتفت

ليس فى ألحاننا النشوة والطرب ؛ ولم تنطلق إلى القرية طلباً للفائدة ؛ ولم تنفرج شفاهنا عن كلمة أو ابتسامة ، وما تريثنا على الطريق ؛ ولـكن رحنا نستحث الخطو كلما انطوى الزمن

تكبدت الشمس السماء والبط يموج تحت وارف الظل ، وأوراق الشجر تضطرب فى الهاجرة ، وغفا الراعى فى ظل شجرة الرند يحلم ؛ أما أنا فاستلقيت إلى جانب الغدير مرسلاً أطرافى المكدودة على الحشائش

لقد سخر منى صحابتى وانطلقوا فى سمر فلم يعقب واحد منهم ولم يستأن ، ثم غابوا عند الأفق . لقد اجتازوا مهامه ومروجاً وبلاداً نائية عجيبة . لك المجد يا من تملك الطريق اللانهائى ! إن السخرية واللوم أفزعانى عن مكانى ، وإن لم أجد الرضا فى نفسى فلقد فقدت نفسى فى أعماق الخشوع الجميل ... فقدتها فى ظلال النشوة الغامضة

إن وشى الشمس الجميل انتشر فى بطء على قلبي فأنسانى ما انطلقت على أثره فأسلمت عقلى — فى غير عناد — إلى مباهج الظل والأغانى

وأخيراً حين استيقظت من سباتى وجدتك إلى جانبي تنزع عنى النوم بابتساماتك . كم خشيت أن يكون الطريق إليك طويلا وعراً ، وأن يعجزنى أن أصل إليك !

كامل محمود حبيب

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٣ —

المتحف العسكرى

يا أخى صاحب الرسالة

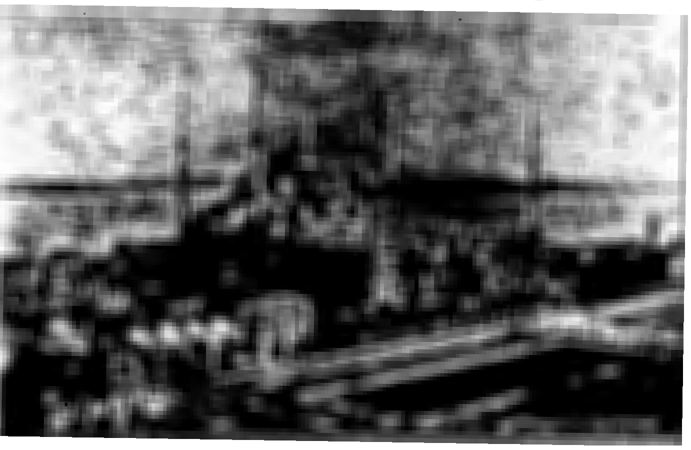
سلام عليك . لا أقول هذه ثالثة الرسائل خيفة أن تقول فى نفسك « ثالثة الأثافى » بل أقول هـذه الرسالة الثالثة أرسلها إليك من استنبول لأصف لك مما رأيت

خرجت من مسكنى فى تقسيم أؤم التحف العسكرى ومعى زميلى الدكتور زيادة ، فلما أجزنا الجسر — جسر غلطة [1] شرعت السماء ترذّ لنا ، حتى إذا بلغنا ساحة أياصوفيا وملنا شطر قصر « طوب قبو » انهمر المطر فأوينا إلى الباب ، وهو باب شاهق واسع عليه الطغراء السلطانية ، يمتدّ على جانبه سور عال كأسوار القلاع ، أوينا إليه مع من ألجأهم المطر ؛ وازداد المطر انهماراً فطال بنا الوقوف . ولست أنسى مشهداً رائعاً شهدته هنالك : إلى اليسار سبيل السلطان احمد في جمال هندسته وحسن نقشه ، وحلّى من الخط والمعنى تتجلى بها أبيات من الشعر أطافت به ؛ وإلى اليمين جامع أيا صوفيا يبدو جانب من قبته ومأذنتان من



(جسر غلطة)

مآذنه الأربع ؛ وأمامى على بعد جامع السلطان احمد فى جلال قبابه. وجمال بنائه ، قد علت قبته ومآذنه الستّ أهلّة ذهبية يزيدها المطر اشتمالاً . وهيهات أن تذهب بنور التوحيد سُدَف الدجن أو شآبيب المطر ، وجامع السلطان أحمد أجمل جوامع استنبول فى رأيى وأكثرها إضاءة فى قلب الداخل وعينه . ما يزال الطرف يتقلب بين جدرانه وأساطينه وقبابه حتى إذا بهره الجمال والجلال استراح إلى مرأى البحر من خلال النوافذ الزجاجية الجميلة . وقد دخلته قبل ثمانى سنين ، فلما رأيت هذه الأساطين الأربع الماثلة قلت : « يا لك أربعة أساطين حملت الدنيا والدين ! »



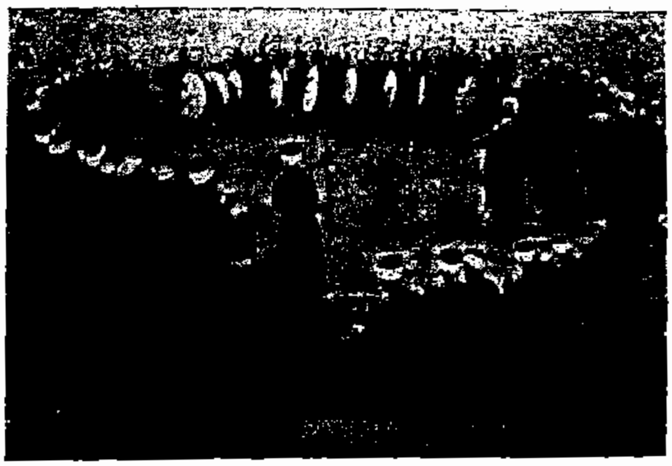
(منظر لجامع السلطان أحمد)

خف المطر فأسرعنا صوب المتحف العسكرى فاذا هو مقفل إلى الظُّهر فأوينا إلى باب « الضربخانة » . ولما أذن المطر بالمسير انصرفنا نسير فى أرجاء المدينة . ثم عدنا إلى المتحف ، وهو فى كنيسة قديمة اسمها سنت أدنيا ، رُصّت خارجه مدافع كثيرة جاهدت فى عصور مختلفة . فيها مدفع كبير بجانبه قذائف مكورة من الحجر وقد نقش عليه بالعربية بيتان يدلان على أنه من مدافع سليمان ، وأنه صنع سنة ٩٢٨ هـ وهنالك مدافع أخرى نقش عليها أسماء صانعيها ؛ وأمام المتحف قنبلة سوداء مخروطية طويلة هى بعض ما ألقاه الأسطول الانكليزى على الجيوش العثمانية حينما سدّت طريق الدردنيل بأبدانها وإيمانها

وفتحنا الباب فإذا دهليز على جانبيه تمثالان لجنديين دارعين من انكشارية القرنين الثامن والتاسع من الهجرة . ثم سلكنا الدهليز بين بنادق كثيرة من صنع القرن الماضى والقرن الحاضر . ولست أستطيع ولا أستحسن أن أصور لك كل ما رأيت فى هذا المعرض العظيم من تاريخ الصناعات ومجد العثمانيين وعبر التاريخ : أكداس من الوقائع والعبر ، يضيق عنها النظر والفكر ، وإنما

(١) جسر يصل جانبي المدينة : استنبول وغلطة . وهذه التسمية لجانبي المدينة قديمة وقد ذكرها ابن بطوطة ، والجسر فى مدخل خليج القرن الذهبي وهو جسر ضخم عائم ترفعه عائمات ضخمة بجانبها عائمات أخرى اتخذت طريقاً ومراسي للبواخر الصغيرة والمطاعم ومجالس للسافرين -

أصف لك ماغلب على الذاكرة ، من بينها : المتحف كنيسة قديمة تقوم على ساحتها قبة كبيرة عالية ويدور بها طبقتان من الاروقة سرنا فى الرواق إلى اليمين ودرنا معه فإذا بنادق ومدافع وآلات حربية كثيرة ومناظر لبعض الحروب ، حتى انتهينا إلى سيارة في نوافذها ثقوب ؛ فهذه السيارة التي قتل فيها المرحوم محمود



(حلقة موسيقية صوفية)

شوكت باشا وهو صدر أعظم فى عهد السلطان محمد الخامس ؛ وبعدها صور وآثار كثيرة لمتأخرى القواد العثمانيين : علمدار مصطفى باشا ومختار الغازي وأنور وغيرهم . ثم خرجنا إلى وسط الكنيسة فرأينا فى صدرها صورة الغازى مصطفى كمال باشا بجانبها أنواع من الأسلحة القديمة والحديثة . وسرنا قليلاً فإذا درع قديمة تتخطاها العين غيرحافلة ، حتى إذ أوقفها التطلع قرأت عليها : « درع الفاتح » فأخذها جلال الذكرى وأدركت فرق ما بين المظاهر والحقائق ، بجانب الدرع سيوف من ذلك العهد وتروس محكمة الصنع منها ترس محمود باشا أحد الصدور فى عهد الفاتح ، وترس يعقوب جلبي بن السلطان مراد الأول . ويقال إن السلطان بايزيد أمر بقتله وهو يتعقب العدو فى موقعة قوصوه الأولى سنة ٧٩١ ، ثم سيوف لسليمان القانونى فيها سيف كتب عليه :

على الله فى كل الأمور توكلى   وبالخمس أصحاب العباء توسُّلى

ورأينا بعد هذه خوذات أهداها نابليون إلى السلطان سليم الثالث ، وعلماً رفعه العثمانيون فى موقعة قوصوه الأولى ، ثم مخلفات السلطان عبد الحميد . وهكذا نطوى العصور فى لمحات . فالفاتح وبايزيد وسليم وعبد الحميد طواهم التاريخ فى سجله ، وجمعهم الزمان في معرضه ، فدار بهم الزائر فى خطوات ، وحواهم بطرف فى نظرات ، وقبض الدهر هذه العصور المتطاولة فى كلمة واحدة : « الماضى » ...

وفى الدهليز الذى إلى اليمين سنان رمح كان للأمبراطور جستنيان ، وبركار كان للمعمار سنان . قلت لنفسى : شتان ما بين السنانين هذا للحرب والفناء ، وهذا للعمران والبقاء . قد فنيت آثار سنان جستنيان ، وللفناء كان طعانه ، وبقيت آثار بركار سنان ، وللبقاء كان بنيانه . وحسب سنان خلودا هذا الجامع الرائع والأثر العظيم الذى يدل على الصانع : جامع السلطان سليمان . على أن هذه اليد الماهرة المعمرة شادت فى أرجاء المملكة أربعمائة بناء (عمر المعمار سنان أكثر من مائة عام وتوفى سنة ٩٩٦ ودفن فى الجامع الذى ينسب إليه فى استنبول) وبعد هذين صورة تمثل الأمير البطل عبد القادر الجزائرى وهو يقابل القائد الفرنسى بعد معاهدة تفنة سنة ١٨٣٨ م

وفى الطبقة الثانية تماثيل كثيرة تمثل رجال الدولة وخدم الملوك فى أزيائهم القديمة . فهذا شيخ الإسلام على أريكة قد جلس أمامه أعوانه ، وهذا قاضي العسكر بجانبه قاضى مكة وآخرون .



(شيخ الاسلام)

وهذا أغا دار السعادة ، وهذا قزم كان يضحك السلاطين ، وهذه صور الانكشارية فى أزيائهم العجيبة ، وهذا الجلاد واقفاً كالقضاء ينفذ أمر السلطان — صور من التاريخ مبكية مضحكة ، وفى هذه الطبقة خرائط مجسَّمة تمثل القسطنطينية وما يحيط بها ، وألواح فيها آيات من القرآن أو كلمات مأثورة ...

وبعد فحسبي اليوم هذه السطور . ولعل الرسالة الآتية تبلغك عما قليل ، والله يرعاك والسلام عليك

استنبول ٣ أغسطس سنة ١٩٣٧   عبد الوهاب عزام

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٨ —

« كتب كاتب في العدد الأخير من مجلة المقتطف القراء شيئاً بعنوان « سيرة الرافعي » فيه أشياء أعرفها ويعرفها قراء الرسالة ، وفيه أشياء لا أعرفها ولم أسمع بها على طول صحبتي للرافعي وما رويت من خبره عن أهله وخاصته ، وفيه أشياء أنا على خلافها ؛ ولو كان لي أن أعرف مصادر الكاتب إلى هذا العلم لاتهمت نفسي ؛ ولكني أحسب كل مصادره أنه يسرف في الاستنباط ، فرجائي إليه أن يمايز بين أجزاء الكلام ليعرف ما هو له وما هو للحقيقة ، فان فكر المفكر غير حوادث التاريخ ، وما تراه أنت رأياً في الحادثة قد يراه غيرك على نقيض ؛ والحياة حادثة وقصة واحدة لاخلاف فيها ، ولكنها على اختلاف من ينظر فيها من أهل الرأي والفلسفة قصص وحيوات ؛ وإن عليّ للرافعي لديناً يدعوني إلى السهر على تراثه ، فمن ذلك أرى عليّ أن أتوجه إلى الكاتب بهذا الرجاء ، وأن أتوجه بالعتب إلى الأستاذ فؤاد صروف القائم على تحرير المقتطف ، وهو الخبير بموازين الكلام ، وهو هو الذي كان للرافعي صديقاً من خاصة أحبابه وأصفيائه » (العريان)

الرافعي الناقد

سأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن شيء مما كان بين الرافعي وأدباء عصره ، وإنه لحديث شائك ، وإنني منه لفي حرج شديد . لقد مات الرافعي ولكنه خلف وراءه صدى بعيداً مما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية ؛ فما أحد منهم إلا له عنده ثأر ، وفي صدره عليه حفيظة أو له عليه معتبة . ولقد اهتزت بلاد العربية كلها لنعي الرافعي وما اختلجت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهله كلمة عزاء ، إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك ، إذ كتب برقية إلى ولده ؛ فلا جرم كان بذلك — على تفاهته — أنزه خصوم الرافعي وأعرفهم بالأدب اللائق !

ولقد مضى بضعة أشهر منذ ترك الرافعي دنياه ؛ فهل رأيت أحداً منهم كتب شيئاً عنه يناله بالمدح أو المذمة ؟ وهل رأيت اللجنة التي اجتمعت لتأبينه قد استطاعت أن تحمل واحداً من هؤلاء على أن يشاركها فيما تعمل لتأبين الرافعي ، أو قل لتاريخ عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعيننا ويوشك أن يضيع في مدرجة النسيان ؟

ليت شعري أكان الرافعي من الهوان في المنزلة الأدبية بحيث لايذكره ذاكر من زعماء الأدب العربي ولما ينقض على موته بضعة أشهر ، وبحيث تجتمع له لجنة التأبين وتنفض وتحدد الموعد ثلاث مرات ثم لاتجد من يتقدم إليها ليقول في تأبين الرافعي فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد ... ؟

ولكنه هو — رحمه الله — الذي ألّب على نفسه هذه المداوات حياً وميتاً . لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان ، لايعرف المداراة ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه . وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس ؛ وكان فيه صراحة وصرامة ؛ وكان له في الأدب مذهب وحده ؛ وكان فيه حرص على « اللغة » من جهة الحرص على الدين ، إذ لايزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء : لامنفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً » وكان يؤمن بأنك « لن تجد ذا دِخْلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة » ... فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً ، يهاجم خصومه على طريقة عنترة : يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع ... !

إقرأ له في أول كتاب المعركة : « ...إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة ، إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه ، فقد تكون غداً فيمن لانعرفه ؛ ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء ، لا جهلُنا من نجهله يلطّف منه ، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان في أسلوبنا من الشدة أو العنف ، أو القول المؤلم أو التهكم ، فما ذلك أردنا ؛ ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل ، فما به زجرُ الأول بل عظة الثاني ... »

***

وأول ما أعرف للرافعي في النقد ، مقاله في الثريا عن شعراء العصر في سنة ١٩٠٥ ؛ ثم مقاله في الرد على المرحوم المنفلوطي في المنبر ، وكان نشر مقالاً يعارض به رأي الرافعي في الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكري ، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعي يقول : « قد وكلت أمر تأديبه إليك ... ! »

ثم كانت مساولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة

نشأتها فى سنة ١٩٠٨ ، ثم مقالات عن الجديد والقديم ، والعامية والفصحى ، فى مجلتي البيان والزهراء ؛ ثم خصومة بينه وبين لجنة النشيد القومي فى سنة ١٩٢١ ؛ ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتور طه حول كتاب رسائل الأحزان فى سنة ١٩٢٤ فى السياسة الأسبوعية ؛ فكان هذا أول ما بينهما ؛ ثم كانت المعارك العنيفة بينه وبين العقاد ، وبينه وبين عبد الله عفيفي ، وبينه وبين زكي مبارك ، إلى ما لا ينتهي من المصاولات بينه وبين أدباء عصره

على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بل لعلها أشهر وأقسى ما فى العربية من معارك الأدب ، وإنها لجديرة بأن يؤرخ بها فى تاريخ النقد كما كان العرب يؤرخون بأيامهم ... !

وإنى لأشعر أن علي واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التى نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها ، وإنى لأشعر بجانب ذلك أنى أكلف نفسي بهذا فوق ما أستطيع

إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعي كان له هو وحده ، فلا عليّ ما دمت مطمئن النفس إلى ما أكتب ؛ أما الآن ... أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعي أسماء ، وإنهم لذوو حول وسلطان ، فما أدرى أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون . ولقد رأيت ما فعلت بالرافعي شجاعتـه فمات لم يذكره أحد منهم أو يترحم عليه ؛ وما أنا كفء لهذه المداوات، ولست لها بأهل ، ومالى طاقة بالدفاع عن نفسي ، ولا لى أنصار ذوو لسان وبيان ، وما تهون عليّ نفسي ... !

ولكن ... ولكن من عذيرى يوم الحق من كتمان الشهادة ؟ ولكن ... ولكن ما أنا إلا راوية يكتب ما رآه لا ما ارتآه . ولكن ... ولكنّ فلاناً وفلاناً اليوم أمامي تصول وتجول ، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث . ولكن ... ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى محو فيه أو إثبات . ولكن ... ولكن الندم على ما كان لا يمحو من تاريخ الانسان ما كان ...

فهذا عذرى عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثي بما يغضب أو يسوء ، فإن كان لى عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فليحدثونى لأطوى من الحديث ما قد يغضب أو يسوء ...

أما وإن تاريخ الرافعي فى هـذا الفصل هو تاريخ الأدب فى جيل من الأدباء ، فإن كان من حق أحد أن يعتب عليّ لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب لأوجب ؛ وما أريد من فلان وفلان شيئاً ، ومالى عندهم حاجة ولا لهم عليّ يد ؛ فليغضب من يغضب للحق أو لنفسه فلا عليّ من غضبه أو رضاه ، وإنى لماضٍ فيما أنا بسبيله ...

بين الرافعي وطه

فى سنة ١٩٢٢ كانت السياسة الأسبوعية هى صحيفة الأدب والثقافة ؛ وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين فى الأدب وفى السياسة معاً ؛ ولم يكن بين الرافعي وطه يومئذ شىء يثير ثائرة فى الصدر ، أو يدعو إلى عتاب وملامة ، ولكنّ إرهاصات كانت تسبق ذلك ببضع عشرة سنة ...

كان طه حسين فى سنة ١٩٠٩ هو الطالب المرموق فى الجامعة ، وكان الرافعي الشاعر ماضياً فى الشعر على سنته ، لا يعرف له أحد مذهباً غير الشعر ؛ فلما نشر مقاليه المشهورين فى (الجريدة) ينقد بهما أساليب الأدب فى الجامعة ، تنبهت إليه العيون ؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب فى سنة ١٩١١ ، عرف الأدباء الرافعي العالم المؤرخ الرواية ، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة .

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئـذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة ، فنفس على الرافعي أن يؤلف كتاباً فى تاريخ آداب العرب فكتب ينقد كتابه ويقرر أنه لم يفهمه ، ثم يقررها ثانية فى نقد « حديث القمر » وثالثة فى « رسائل الأحزان » ؟

الحق أن الرافعي كان يطمع فى أن يكون إليه تدريس الأدب فى الجامعة منذ أنشئت الجامعة ، وقد كشف عن رغبته هذه فى مقاليه الأول والثانى بالجريدة ؛ ولكن طه يومئذ كان طالباً فى الجامعة ، فمن الإسراف فى المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعـدُ إلى النفاسة أو المنافسة على كرسى الآداب فى الجامعة ؛ ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية له قدره فى هذا الفصل فلا بد من الإشارة إليه

* * *

ونفخت السياسة الأسبوعيـة فى الأدب روحاً جديدة ، واتخذت لها أسلوباً فى الدين وفى العلم وفى الأدب ، فقال عنه جماعة من الأدباء : إنه إلحاد وكفر وضلال . وقالت طائفة : إنه المذهب الجديد فى الدين والعلم والأدب . ثم مضت السياسة بما تكتب وبما

تفصح من صدرها للكتاب، تقسم الأدباء إلى فرق ومعسكرات، وقديم وجديد، ورفعت في الجهاد راية ...

والرافعي رجل — كان — فيه عصبية للدين، وعصبية للقديم؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة في غد ...

ونال الرافعي رشاش من بعض المعارك وإنه لبعيد عن الميدان، فأحس في نفسه رغبة في الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودسّ كلمةً إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة، فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترى إليه ... ثم عرف ...

وتهيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحدٌ بالعدوان .. وتربّص الرجلان في انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعي رسائل الأحزان، فسعى راجلاً إلى دار السياسة ليهدي إليها كتابه. وهناك التقى الرافعي وطه حسين وجهاً لوجه ... ونظر الرافعي إلى طه، واستمع طه إلى حديث الرافعي، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة المصارعة، ونفخ الدكتور هيكل بك في صفارة الحكم، وبدأت المعركة. وكانت مشادة حادة خرج الرافعي يتحدث عنها وصمت طه

لمن يا ترى كانت الغلبة؟ الرافعي يقول: أنا ... ولكن طه لا يتكلم، والدكتور هيكل ضنين بالحديث

ومضت فترة، ثم نشر طه حسين رأيه في رسائل الأحزان في السياسة الأسبوعية، فرفع راية العداء وأعلن الحرب. ورد الرافعي يقول:

يسلّم عليك المتنبي ويقول لك:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم!

ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى، في مقال طويل تقرؤه في ص ١٠٩ — ١٢٢ من كتاب المعركة؛ وطارت الشرارة الأولى، فاندلعت ألسنة النار فما خمدت حتى أحدثت أزمة وزارية، وأنشأت جفوةً بين سعد وعدلي، وأوشكت أن تؤدي بعلي ماهر إلى المحاكمة، وهزّت دوائر البرلمان، ثم انتهت في النيابة العمومية ...

وفي الأسبوع المقبل بقية الحديث عما كان

« شبرا » محمد سعيد العريان

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

— ٢ —

لعل أبا إسحق الصابي أصدق مثل يضرب لمن يماري في وجوب نزول الآباء على إرادة الأبناء فيما يحبون من فروع العلوم أو ينزعون إليه من أفنان الفنون، وأن خير ما يؤخذ به المتعلم هو الرغبة الحافزة لا الرهبة القاسية، إذ لا يرتجى كثير نجاح في قسر الأبناء على علم بعينه يريده الآباء، ولا أخذهم بدراسة مخصصة لا يبغيها أولئك ويحتمها هؤلاء، فإن ذلك قاتل لملكاتهم رافع بهم إلى الاستيئاس من النجاح، أو على الأقل الأدنى نازع بهم إلى القصور في كل علم، والتقصير فيما لا يميلون إليه من الفن، وضارب بهم في مهامه لا يعرفون وجه المحجة فيها، وموقع بهم في مفاوز إن نجوا منها فبعد لأْيٍ وعناء؛ ولاسيما متى كان ذكاؤهم محدوداً ونبوغهم قاصراً. ورضي الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث يقول: « لا تقسروا أبناءكم على آدابكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم » وإذا كان رضوان الله عليه قد قصد بالتأديب معناه الأخص فهو على وجه العموم أولى، وبشموله كل أدب أجدى

دفعني إلى تلك التقدمة أني رجل تربية من واجبي تنبيه الأذهان إلى ترك الحرية العلمية للتلميذ ينهج فيها نهجه الذي يحبه. فلقد حاول أبو الحسن والد إبراهيم الصابي تعليمه منذ نشأته صناعة الطب وحذق الحكمة سيرا على سنن آبائه نهجا على منهج أسلافه، إذ كان جلهم رجال طب وحكمة. وبذل في سبيل ذلك غاية الجهد، وجهد لتنفيذ إربته إلى أقصى غاية، وقد وجد من ابنه سميعاً ومن إبراهيم مطيعاً، لا عن رغبة وحب، بل عن رهبة وأدب، وقسر وزجر. ولو غير أبي إسحاق لرمى بكلام أبيه عرض الأفق، ولكنه كان باراً بأبيه عالماً بواجبات الأبوة لا يعصي له أمراً وإن جاء قاسياً، ولا يخالف له رأياً وإن بدا له رأياً خاطئاً، وإن هذه النزعة فيه نزعة البر والحدب والحب والولاء ليعبر عنها شعره تعبيراً قوي الأسر صادق النزعة، فهو

ى أن الإنسان بعد فقد والديه ليس شيئاً مذكوراً ، وأنه يعيش فى الدنيا غريباً ، لأنه لايجد فؤاداً يحنو عليه ولا عيناً ترمقه ، وأنه يعيش — متى كان حى الوجدان — جنيب صفاء وأليف شقاء ، فمن هذا قوله :

أسرة المرء والداه وفيما بين حضنيهما الحياة تطيب
فإذا ما طواهما الموت عنه فهو فى الناس أجنبى غريب

ولا يختلف شأنه مع أبنائه عن شأنه مع والديه ، فإنه ليعطف عليهم عطف الأم الرءوم لا الأب الرحيم ، ويتجاوز عن جرائرهم ويجعل هفواتهم دبر أذنه ، حتى لا تقع عليهم لمنة الله ولا تحق فيهم كلمته ؛ شأن الأب الكريم ، وشيمة الرجل الحليم الحكيم . وهو إذ يتحدث عن ذلك يتحدث فى زهو ، ويقصه فى فخر معلما أولئك الآباء القساة طرائق فى التربية تسعدهم وتسعد أبناءهم ، ومتى أغنت النظرة فلا حاجة إلى الكلمة ، وفى مثل ذلك يقول:

أرضى عن ابنى إذا ما عقنى حذرا
عليه أن يغضب الرحمن من غضبى
ولست أدرى بما استحققت من ولدى
إقذاء عينى وقد أقررت عين أبى

واستمع إليه يرد على رسالة وردته من ابنه أبى على المحسن كان قد كتبها تسلية له فى إحدى نكباته ، وجاء فى رسالة أبى على هذان البيتان :

لا تأس للمال إن غالته غائلة
ففى حياتك من فقد اللُّهى عوض
إذ أنت جوهرنا الأعلى وما جمعت
يداك من تالد أو طارف عَرَض

فكتب تلك الأبيات التى أحسبها من حبات قلبه نسيجها ، ومن عبرات عينيه نظيمها ، فكل حرف شفقة وعطف ، وكل كلمة بر ورحمة . قال :

يا درة أنا من دون الردى صدف لها أقيها المنايا حين تعترض
قد قلت للدهر قولاً كان مصدره
عن نية لم يشب إخلاصها مرض
دع المحسن يحيا فهو جوهرة
جواهر الأرض طرا عندها عرض

فالنفس لى عوض مما أصبتَ به
وإن أصبت بتفسى فهو لى عوض
أتركه لى وأخاه ، ثم خذ سلبى
ومهجتى فهما مغزاى والغرض

فلا غرو إذا مازل ، وهذا خلقه وتلك شيمه ، على أمر أبيه كارهاً ، وأطاعه تكلفاً ، وجامله فيما كلفه إياه مصانعاً ، فتعلم الطب مخلصاً فى تعلمه ، وإن لم ينته عن التعرض لما تصبو إليه نفسه ، ورغب فيه طبعه ، فكان يزاول فى أوقات خلوته وسويعات فراغه من كتب الحكمة — أشتات علوم اللغة والأدب وما إليهما ، فإن علم أبوه ذلك عنه نهاه وزجره ، حتى يأخذ فيما يؤهله له ، ولا يصرف وقته فيما لا غناء فيه فى نظره . وأجدر بى أن أسوق حديث أبى اسحاق عن نفسه فى هذا الموقف ، فإنه يقول : « كان [1] والدى أبو الحسن يلزمنى فى الحداثة والصبا قراءة كتب الطب والتحلى بصناعته ، وينهانى عن التعرض لغير ذلك ، فقويت فيها قوة شديدة ، وجعل لى برسم الخدمة فى «البيمارستان» عشرون ديناراً فى كل شهر ، وكنت أتردد إلى جماعة من الرؤساء خلافة له ، ونيابة عنه ، وأنا مع ذلك كاره للطب ، ومائل إلى قراءة كتب الأدب ، كاللغة والشعر والنحو والرسائل والأدب ؛ وكان إذا أحس بهذا منى يعاتبنى عليه ، وينهانى عنه ، ويقول : يابنى لاتعدل عن صناعة أسلافك . فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه كتاب من بعض وزراء خراسان يتضمن أشياء كثيرة كلفه إياها ، ومسائل فى الطب وغيره سأله عنها ، وكان الكتاب طويلا بليغاً ، قد تأنق منشئه وتغارب . فأجاب عن تلك المسائل ، وعمل جملا لما يريده ، وأنفذها على يدىّ إلى كاتب لم يكن فى ذلك العصر أبلغ منه ، وسأله إنشاء الجواب عنه . قال: فمضيت وأنشأت أنا الجواب ، وأطلته وحررته ، وجئت به إليه ، فلما قرأه قال : يابنى سبحان الله ! ما أفضل هذا الرجل وأبلغه ! فقلت له : هذا من إنشائى ، فكاد يطير فرحاً ، وضمنى إليه ، وقبلنى بين عينى ، وقال : قد أذنت لك الآن ، فامض فكن كاتباً

ومن ذلك اليوم هجر أبو إسحاق الطب إلى الأدب وقلى الحكمة ليواصل اللغة ، فكان كاتباً أريباً وشاعراً مجيداً ، جرى

(١) معجم ياقوت : الجزء الثانى ص ٤٠

اسمه في كل مجلس ، سواء في ذلك مجالس الأنس والنحس ، وحلق في كل أفق لا يبالي أكان الأفق ساطعاً أم ملبداً ، وبرع في كل فن حتى صار ملء الأسماع ومهبط الآماق ؛ ولله در واصفه إذ يقول :

أصبحت مشتاقاً حليف صبابة ... برسائل الصابي أبي إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجا ... ذوب البراعة سلوة العشاق
طوراً كما رق النسيم وتارة ... يحكي لنا الأطواق في الأعناق
لا يبلغ البلغاء شأو مبرز ... كتبت بدائعه على الأحداق

وإن أدبه — كما يقول معاصروه — لسلوة الحزين ، وشفاء الكليم ، وأنيس المسافر والمقيم ، وسمير الصديق والحميم ، مما يدل على أنه كان أمة عصره ونابغة دهره ، يشهد له بذلك البعيد والقريب ، والعدو والحبيب ، ولن أبلغ في وصف أدبه الغاية كما بلغ لداته ، فهذا أحدهم يقول :

يا بؤس من يمنى بدمع ساجم ... يهمي على حجب الفؤاد الواجم
لولا تعلله بكأس مدامة ... ورسائل الصابي وشعر كشاجم

ولكنه لبؤس حاله ونكد طالعه نشأ في عصر أفعم بالفتن ، فسياسته مختلة ، ورياسته معتلة ، والخلافة اسم ليس له مسمى ، ورسم لا حقيقة ، وملوك الديلم تتأرث بينهم الأحقاد ، وتحاك الدسائس وتفشو الفتن ، والرجل ذو المروءة لا يسلم روحيًّا وحسيًّا ، فإما النفاق فيسخر ضميره لكل حاكم ، ويكتب بكل قلم ، ويأكل على كل مائدة ، ويمنح عقله كل راغب ، ويعطي لسانه كل خاطب ؛ وإلا فالمحابس مفتحة ، والسلب والنهب أيسر عقاب . ولقد كان إبان شبابه قبل أن تستشرى الفتن ، ويتنزى الاضطراب وتتأصل في النفوس السخائم ، يتسامى ويتصاعد ، وجده يتعالى ويتماجد ، حتى صار من العظماء الممدوحين لا من الأدباء المادحين ، فسعى إلى أبي الطيب المتنبي راغباً إليه أن يمدحه بقصيدتين ولا يمنعه رفده ، أو يقطع عنه سيبه بل يرفده بخمسة آلاف درهم ، فبعث إليه المتنبي قائلاً : « والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب عليّ في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يقصد المهلبي) وتغير عليك لأنني لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالي هذه الحال ، فأنا أجيبك إلى ما التمست ، وما أريد منك مالاً ، ولا عن شعري عوضاً » فتنبه إلى موضع خطئه ولم يعاوده بعدئذ . وإن دننا ذلك الحديث الذي رويناه عن ياقوت على شيء فإنه يدل على سمو نفسه واعتزازه بقدره ، فمن أسمى من ممدوح المتنبي ؟ كما يدل على علو منزلته لدى أبي الطيب ، وعلى أن هذا كان شديد الإخلاص وفير الوفاء لصداقته ، فلو قد فعل دون تحذير أو تنبيه لبكرت عليه النكبات ، ولفقد ولياً طالما بذل له رفده ، ولعب على ضوء وده

وكان لذيوع اسمه بين الكتاب والشعراء موجدة إن نأى ومحبة إن دنا في نفوس الملوك والوزراء ، وما أكثرهم في ذلك العصر ، فهو إن أخلص لهذا عوقب ، وإن والى ذاك عوتب ، وإن لزم الحيدة أنب ، وإن أعلن عن رأيه أدب ، فهو ملوم في كل حال ، مستحق العقوبة في كل زمان ومكان ، فكان نزيل السجن مسلوب الوفر ، وهذا ما جناه على نفسه . فلو أنه أطاع أباه وانصرف إلى الطب لعاش سعيداً ومات سعيدا ، ولكنه تنكب الطريق السوي فكان من أمره ما سنفصله في مقال تال

عبد العظيم علي قناوي

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ أحمد الزين

أهدى الأستاذ توفيق الحكيم إلى الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين كتابه « يوميات نائب في الأرياف » فأجابه الأستاذ الزين على هديته بهذه الأبيات :

إنْ يفخر العَربُ الكرام بكاتب ... فَلْيَفْخروا بيراع ذاك النائبِ
قلمٌ بتصوير السرائر مُولَع ... غَيْبُ النفوس عليه ليس بغائب
يَسري إلى طي الصدور شعاعُه ... أمضى وأنفذ من شهابٍ ثاقب
يصف النفوس كما بَرَاها ربها ... ويميط عنها كلَّ ثوب كاذب
فكأنما يدعو النفوس فتلتقي ... في الطرس سافرة سفور الكاعب
سحر البيان يبين كل خفية ... أين المصوِّر من يراع الكاتب
إيهٍ أديبَ الشرق، هات روائعا ... قصصاً تُوَشِّيها بظرفٍ خالب
وأَفِضْ على اللغة الكريمة ثروةً ... فالعُرْب أشْكَرُ أمة للواهب

أحمد الزين



رسالة الشعر



وحي المصيف

بين الأمواج وفوق الشاطىء

للأستاذ محمد الأسمر

ليس الفؤادُ وإن حرصتَ بسالمٍ ... فاقرعْ على ما كان سنَّ النادمِ
ناديتهُ — والموج فيما بيننا — ... فأجابنى : دعني فما من عاصمِ
الذنبُ ذنبي حيث أنزل لاهياً ... فى البحر أسبحُ بين سربِ حمائمِ
ما كُنَّ من وُرْقِ الوكور وإنما ... وُرْقٌ هزأْنَ بكل ريش ناعمِ
يَسْبَحْن فوق الماء ألين ملمساً ... منهُ وأبهى من فرند الصارمِ
سِربٌ تقاسمَ مهجتى ومضى بها ... فرحان يلعبُ كالإوز العائمِ

***

وعلى الرمالِ من الحسان جآذرٌ ... كدراهمٍ نُثِرتْ حيالَ دراهمِ
متبسماتٌ للهواء وللهوى ... يَمْرَحْنَ ما يمرحنَ غير أواثمِ
مستلقياتٌ كاللآلئ رونقاً ... نهبَ النواظر، والخيال الهائمِ
لكأنَّ (بحرالروم) أخرج دُرَّه ... فشت به الأمواجُ جِدَّ رواغمِ
حملته وهي غواضبٌ وأتت به ... (الـــمصطاف) بين هماهمٍ وزمازمِ
أو ما تراها لايقر قرارها ... في كل ناحيةٍ زئيرُ ضراغمِ
قذفتْ به فوق الرمال أوانساً ... من نسل أعرابٍ، ونسل أعاجمِ
فوق الظهورِ أو البطونِ رواقدٌ ... متناوماتُ الجفن غير نوائمِ
حيث الهواء الطلقِ، والشمس التي ... تفترُّ عن ثغر هنالك باسمِ
جاذبَتني عقلي فطاوعَ بعد ما ... قد كان لى فى البحر ألومَ لائمِ
فالآنَ لاقلبي، ولا عقلى معى ... إلا خيالاً مثل حلم الحالمِ

محمد الأسمر

طيفهـــــا ...

للاديب محمود السيد شعبان

يامَنْ أراها برَغْمِ البُعْدِ دانيةً
ولا يَراها برغم القُرْبِ مَنْ تَصِلُ !
لا تجْحَدِى خاطراً قد جالَ فى خَلَدِى
أوْحَتْهُ لِى من سَمٰوَاتِ الهوى رُسُلُ
أوْ تُنكِرى ما رأَتْ نفسِي وما نظرتْ
فالدَّمْعُ يَشْهَدُ إنْ أنكرْتِ والقُبَلُ !
يا طالما زُرْتِني والفجرُ مُبْتَسمٌ
وطالما جئْتِني والليلُ مُنْسَدِلُ !
ألسْتِ أنتِ التي أنشَدْتِني نَغَماً
هو الرِّضَى والهوى والشَّوقُ والغزلُ ؟!
ألسْتِ أنتِ التى أهْدَيْتِني قُبَلاً
كالسِّحْرِ يَكْمُنُ فى طيّاتِه الخَبَلُ ؟!
تذكَّرى لا تقولى : لَسْتُ ذاكرةً
فإنَّما البشْرُ قد أنساكِ والجَذَلُ !!

***

يا طيفها هل تراني كنتُ في حُلُمٍ   أم أنه الحقُّ لا مَيْنٌ ولا خَطَلُ؟!
ذهبتَ يا طيفها عنّي إلى وطنٍ   تقطّعت دونه الأسبابُ والسُّبُلُ
فكيفَ أحيا غريباً عنكَ مبتعداً
والحسنُ فنٌّ فريدٌ فيكَ مكتَمِلُ؟!
أمدُّ كفّيَ أرجو أن تصافحني   فلا تمدُّ يداً نحوي وترتحِلُ!
تعالَ يا طيفها زُرْني كمن كَرُمُوا
ولا تكن مثل مَنْ ضَنُّوا ومن بَخِلُوا!
خلّفتني مفرداً لهفانَ لا وطرٌ   به أُعلّلُ أنفاسي ولا أَمَلُ!
أضمُّ ظلَّكَ من شوقٍ فيتركني   يا حسرتاه وحيداً ثم ينفتِلُ!
والآنَ ... يا طيفها أَقْبِلْ لننهل من
مواردِ الحبِّ طهراً مثل مَن نهلوا!

(الاسكندرية)   محمود السيد شعبان

أنا نبأ كاذب

جبران — عن نعيمة —

للأستاذ خليل هنداوي

ويا ناعتي بسمو الخيال   أنا نبأ كاذب فاجر
لقد سكن الوحش في باطني   وإن لان مني لك الظاهر
يُهذب نفسي الخيال الرقيق   ويغمرني بالهدى غامر
ولكنني أبداً في انخفاض   يجاذبني طبعي الماكر
ويغلب فيَّ الدنيءُ البريءَ   ويسطو على الشاكرِ الغادرُ
وتنزع نفسي إلى خبثها   وثوبي - بعين الورى - طاهر
أأزعم أني لطبعي قهور   إذا شئتُ، وهو لي القاهر
أأقهر إرث زمان طويل   بنفسي، فأنت إذاً جائر!
عوالم أحمل آثارها   من الشعر يخطئها الناظر
عوالم تنبتُ في اللاشعور   يُقادُ بها الوعيُ والخاطر
وتحسبُ أنيَ كون حديث   وفيَّ انطوى العالم الغابر
وهل أنا إلا صدى للبعيد   يردده صوتي الحاضر!

خليل هنداوي

صورتان

للأستاذ زكي المحاسني

أيا صورةً منسيةً وهي في نفسي   أشاهدها مادمت أصبح أو أمسي
مددت إلى الأوراق كفاً وعهدها   قديم كأني كنت أعهدها أمسِ
تلمستها مثل الذي نال ضائعاً   ولم أدر أن الكهرباء لدي اللمس
رجفت وأصمتني من الحزن سكتة   بقيت لها حيناً كأني من الخرسِ
بكيت على تلك المباسم في الثرى   وعهدي بها كالورد مخضلة الغرس
فيا طول ذاك النأي ما منك رجعة
وهل يرجعن الدهر ميتاً من الرمس
أقبل منك الرسم وهو بقية   كما قنع الصديان من فضلة الكأس

* * *

على مَ التجافي يا حبيبي وإنما   خلقنا لكي نحيا أليفين في أنسِ
فوالله مهما عشت لست ببائع   هواكَ ولو أمعنتَ بيعي في بخسِ
لو ان المنى حقت لجزنا مع الهوى
إلى مطلع الأفلاك حتى مدى الشمس
تعالي أمثل فيك رسماً مجدداً   لصورة محبوب تصور في حسي
وأعظم فيك الطهر والحب والوفا
كما تُعظَّمُ الأوثان في الهيكل القدسِ
يناديك، لو أسمعتِ، بي كل خافقٍ
فإن قلتِ كذابٌ فها كبدي جُسّي
إذا شئتِ بيضتِ الحياة بناظري
وخليتِ لي دنياي ترقص كالعُرسِ
وإلا تشائي الحب كوني صديقتي   أجدْكِ عزاءً لي إذا عضني بؤسي

زكي المحاسني
أستاذ اللغة العربية في تجهيز دمشق



أقصوصة من مرجريت ستين

الحلقة الأخيرة

للأستاذ دريني خشبة

« هل الحياة الحب ؟ أم الحياة العمل »

لقد كانت مفاجأة عجيبة حقاً من تلك الفتاة الجميلة العذراء (ديانا...) حين ذكرت لصديقتها الآنسة تمار كورى أنها متزوجة! فلم تكن الصديقة الوفية تعرف عن صديقتها إلا أنها تحب الفتى القسيم الوسيم كليف صولوى، وأن الفتى القسيم الوسيم صولوى يحبها، إن لم يكن يتعبدها، وأنه إنما رحل منذ عشر سنوات إلى كندا الانجليزية يلتمس الثراء الضخم والغنى الوافر ليضمن لمعبودته نعيم الخلد بما ضمنت له نعيم الحب، وليهيء لها عيشة رغداً، لايتلف جمالها عمل، ولا يذهب برُوائها عناء. لذلك قالت لصديقتها حينما سألتها سبب هذا الكتمان الطويل إنهما أرادا بذلك أن يضمن أحدهما الآخر أثناء هذا البعاد الطويل

وقد جلست ديانا تشكو لصديقتها ما تحس به من شتى الأحاسيس نحو فتاها صولوى الذى عرفته وأحبته حين الصبا فى شَرْخه، والشباب فى ميعته، والقلب فى فتوته، وربيع الحياة فى إبانه. فكانت هذه السنوات العشر بما حوّرت وطوّرت، وبدلت وغيرت. فكأنما القلب غير القلب، والسمع غير السمع، والحياة غير الحياة!

ذلك أن الفتاة ديانا، ذات القوام والقد، والجيد والخد، والفم الأنيق والأنف الدقيق، والجمال والفتن... اليتيمة مع كل ذلك، والتي أضفى يُتمها على جمالها ظلالاً من السحر العميق اضطرت لأن تبرز إلى ميدان الحياة لتجاهد فى سبيل قوتها بعد إذ ارتحل حبيبها إلى أمريكا بشهر واحد، لأن عمتها التي كانت تكفلها وتكفيها عناء العمل... ماتت بعد هذا الشهر أيضاً ولم تترك لها من حطام الحياة إلا نصيباً نزْراً من المال ظل يتَسقط من راحتيها اللتين لم يعرفا مَساكا حتى لم يبق منه إلا دريهمات

وساعدتها صديقتها تمار كورى فقدمتها إلى أحد بيوت النشر الانجليزية فربطوا لها راتباً بسيطاً. وكان عملها ثمت أن تقرأ الرسائل الكثيرة المتنافرة ذوات الخطوط المختلطة، التى كان أكثرها أشبه بفرق من راقصات الزنوج يترنحن على القراطيس. ولم تلبث ديانا أن خبرت من الحياة تجاريب لم تعرفها من قبل كان محورها جميعاً المال... المال!... المال الذى تدور حوله كواكب الآمال السيارة، والذى بدونه يقف دولاب كل شيء... حتى دولاب الحب، كما بدأت ديانا تعتقد!

لقد كانت تشهد كيف تتم الصفقات فى البيت الذى تعمل فيه، وكيف كان أصحاب العمل يجنون أشهى الثمرات بقليل من الجهد، حتى لا يكاد أحدهم يبذل فى سبيل المئات التى يحصل عليها آخر كل سنة بعض ما يبذلها أبسط الموظفين فى الشركة.. من أجل ذلك دأبت ديانا تدخر مبالغ صغيرة من راتبها التافه، حتى إذا اجتمع لديها قدر غير قليل أخبرت صديقتها تمار فمهدت أسبابها بأسباب خبير مالي من رجال الأعمال يدعى لويس كراوفورد، له دراية واسعة بالصيرفة، فنصح للفتاة بالمضاربة فى أحد البيوت المالية المربحة بنصف ما معها، حتى إذا غنمت شيئاً عادت فضاربت بنصف ما تملك... وهكذا... واعتمدت ديانا على الله، ثم على هذه الآمال البراقة التى تولدت فى نفسها مذ وضعت رجليها فى شركة النشر... وضاربت كما أشار المالى لويس. ولشد ما شدهها أن ربحت مبلغاً لم تكن قط تحلم به منذ أن ضيعت مائة الجنيه التى تركتها لها عمتها... ودق قلبها البشائر واتسعت أمامها آفاق الأمانى، واصطبغت أحلامها ببريق الذهب وقويت إرادتها وثبتت عزيمتها، فضاربت بنصف ما اجتمع لها

من المال ، وقد صار شيئاً كثيراً فى حسابها ... وربحت ... وفرحت فرحاً شديداً بهذا الحظ الواتي ... وتعلمت أشياء لم تكن تعرفها ... دروس الحياة وأفانين المال وعجائب العمل ... وضاربت مرة ثالثة ورابعة ... واجتمع فى قبضتها كنز من الذهب رَوَّأ لها الآمال ووسع في قلبها الأمانى ، حتى لباتت تفكر فى شراء بيت النشر الذى تعمل فيه !

أما كليف صولوى ... الفتى القسيم الوسيم ، ذو العينين الزرقاوين اللتين تختلط زرقتهما خضرة الأطلنطيق الواسع الخضم فقد عمل هو الآخر وجد ، وسعى واجتهد ، واشترى مرجاً واسعاً من مروج كندا الشاسعة ، جلب له قطيعاً من الغنم الأمريكي ذى الصوف الغزير ، وجعل فى الله رجاءه أن يغل له المال الوفير ليبنى لحبيبته ديانا القصور والعلالى

* * *

وتصرمت سنون خمس ؛ وكتب صولوى إلى منية نفسه خطاباً يقول فى شطره : « لم أستطع بعد يا حبيبتى أن أشيد لك القصر الذى حلمنا به ، على رغم جهادى الطويل الشاق ... إن هو إلا مرج شاسع حلو المشب ، لا ينقصه إلا شخصك المعبود ليكون جنة ذات أعناب ! » وتناولت ديانا يراعها وجلست تكتب إلى حبيبها وقد اختلطت فى قلبها دنيا الأطماع بعالم الحب والأحلام : « حبيبى ! لشد ما أود أن أجتاز الأطلنطيق إليك الآن ... الآن ... فى هذه اللحظة ... لأشفى حاجات الفؤاد المعذب ... ولكن اصغ إلى ... ألا نستطيع أن نتلبث هكذا ... كما نحن (1) حلقة أخرى من الزمان ! خمس سنوات أخر يا صولوى ، وأعود إليك امرأة ذات مال يا حبيبي ! ألا نحتاج مالاً كثيراً نعمل به فى مرجك الشاسع فيضمن لنا حياة واسعة مخفرجة ، نقضى نصفها كل عام فى انجلترا ونصفها الثانى فى أمريكا ؟ يا حبيبى ! ألا تكون حماقة منا أن نهجر الطريق الذى يؤدى إلى أبدع الأمانى بعد أن قطعنا نصفه ...؟ »

وعند ما ذهبت لتلق بالخطاب فى صندوق البريد ، ذرفت دموعاً غزيرة ، وتجاوب صدى وقع الخطاب فى الصندوق فى فراغ قلبها الذى ما يزال حب صولوى يملأه ...

وكتب إليها صاحبها يقول : « أختاه ! لقد علمتنا السنوات الخمس الماضية دروساً صارمة فى فن العيش ... علمتنا الأنفة والكبرياء ... إننا الآن فى مباراة عقيمة ... وكل منا يشتهى أن يكون السابق المجلى ... لقد نسيت أن أذكر لك فى خطابى السابق أن المرج الذى أُنَشِّره لك ليكون جنتك الفيحاء ، هو مرج من أبناء الطبيعة الذين لم تلفهم المدنية ، ولم تفسد سليقتهم الحضارة ذات البهارج ... ولو أنك وافقت لصار بك الفردوس الموعود ... ألا ما أروع السكون هنا ! لا ضجيج كما هو عندكم فى لندن ... على كل سأبذل جهدى فأبتنى القصر المشيد الذى يليق بأبهة مليكتى ... ! »

وجازفت ديانا فاشترت شركة النشر ؛ وقد أحدثت هذه الخطوة الجريئة انقلاباً قوياً فى حياتها ، فقد باتت لا تفكر إلا فى تنمية مواردها ، ومضاعفة النجاح الذي كان لهذه الشركة قبل أن تحمل الاسم الجميل الجديد : (هـ . بلَنْدِلْ) وقد اتسقت أعمال الشركة فعلا ، واضطرد تقدمها ، وبعث كل ذلك فى نفس ديانا كثيراً من الزهو وكثيراً من الخيلاء ، وكثيراً من هذا الشمور الذى هو نتيجة نجاح الطفرة وأثر من آثارها

* * *

لذلك كانت مفاجأة غريبة ألا تعلم تمار كورى ، أعز صديقات ديانا وأوفاهن ، إلا ذلك اليوم ، بزواج صديقتها من حبيبها كليف صولوى ، وهو موشك أن يصل من كندا ، بل هو واصل منها غداً بعد غياب عشر سنوات

ما كان أطولها ليلة مملوءة بالهواجس ، مزدحمة بالوساوس ، عاجّة بالأفكار ، هذه الليلة التى تقلبت فيها ديانا على فراش القلق وما كان إلا من ديباج ... وما كان أشقاها بهذا الشوك الذى يخز جسمها الغض ، وما لبست إلا شفا أنعم من خدود الورد ..

لقد باتت تفكر فى الـ (هـ . بلندل) وأولئك العمال الكثيرين الذين أصبحت هي ضرورة لهم ، وهؤلاء العملاء الذين يصبون أنهار الذهب فى خزائنها ... وتلك الأبهة وهذه العظمة ... والحياة المالية الأرستقراطية المحفوفة بالوقار ... ثم تنتقل من كل ذلك إلى هذا المنفى السحيق وراء الأطلنطيق فى ذاك المرج النائى المهجور ... ولكنها كذلك كانت تفكر فى حبيبها صولوى القسيم الوسيم فتذكر أحلام الصبا وأفاويق الشباب وموسيقى القبل ، وتذكر أيضاً أنه زوجها الذى ارتبطت به برباط السماء العلوى المقدس ... وتذكر فوق ذلك جميعاً أنها لا تستطيع الحياة بغير صولوى كما لا يستطيع صولوى الحياة بدونها ... وهنا تتحير وترتبك ، وتسبح فى بحر لجى تتقاذفها أمواجه فتعلو بها وتسفل وتنظر إلى رأسها فى المرآة فلشد ما تذهل وتراع ! لقد رأت

أولى شعراتها البيض نذيراً صارخاً من مارد الشيب الجبار يؤذن بخاتمة الثلاثين ... فترعج وتنزعج ... وترسل فى المرآة آهة تغطيها بضبابة تستر ما افتر باسماً ساخراً من شيبها !.

ولبثت ترهف أذنيها لرنين جرس الباب ... فقد دنا موعد وصول صولوى ... ولم تشأ أن تنزع الشعرة البيضاء، بل آثرت أن تتركها حيث هى ليشهد حبيبها حقيقة ما كان ... وهى بذلك قد سخرت من نذر الشيب الذى شاء أن يسخر هو منها ...

ورنّ الجرس ... وأسرعت إلى الباب فتلقت حبيبها ملء ذراعيها، وضمها هو إلى صدره الواسع الرحب بذراعين مفتولتين جبارتين، لم تكونا له قبل أن يرحل إلى كندا، ثم انحنى على الفم الرقيق المرتجف يقبله، وما كاد يفعل حتى قاومت ديانا ... وجاهدت حتى انفلتت من صولوى، وفرت منه إلى ركن الردهة القصى ! ووقفت ثمة تحدجه، وتقلب فيه عينيها الثاقبتين !

لقد كبر صولوى وتغيرت معالم شبابه ! ما هذا الصدر العظيم والعضل المكتنز والوجه ذو الأسارير ؟ وعيناه ؟ أين زرقة السماء التى كانت تختلط بخضرة الأطلنطيق ؟ وأين هذا الكوكب الدرى الذى كان يتألق فى أغوارهما فيرسل منهما بريقاً أى بريق ؟ وما هــذه الملابس الغليظة الخشنة والحقائب الثلاث البالية ؟ وما هذه السحب الكثيفة من دخان التبغ يرسلها صولوى فيتلف بها سماء الحب القديم الصافية ... لقد وقف كليف المسكين، وقد أشعل لفافته ينفث الدخان من فمه ! فيتلف على ديانا أخيلتها، ويمسخ أمانيها ...

ثم انفجرت ضاحكةً وانفجر ضاحكا

— أوه ! حبيبي ! هلم ! أدخل أولا ! لقد شبت !

— أجل ياحبيبتى ! هيّا ... لقــد أحضرت كنوزى لأضعها بين يديك ... »

وانحنى صولوى ليحمل الحقيبتين الكبريين، وحملت ديانا الحقيبة الصغرى، حتى إذا بلغت غرفتها الفخمة التى تدير منها أعمال شركتها، لم يلبث كليف أن قال :

— حبيبتى، إنى لا أطيق أن أنظر إلى هــذه الغرفة مالم تكونى أنتِ فيها ! »

وفهمت ديانا ما يقصد صولوى أن يقول، فقالت له ...

— لا عليك، فسنصعد سوية إلى الطابق العلوى يحملنا ؛ إذ لا أحد ممنا يحمل هذه الحقائب الثقيلة عنا ...

ومضيا فى سبيلهما صعدا، وظلت ديانا تنظر إلى بعلها الذى كان يبدو كأنما تقدمت به السن عشراً على عمره، بينما كانت تبدو هى، برغم الشعرة البيضاء، كأنما تأخرت بها السن عشراً عن عمرها ... وظلت كذلك تفكر فيما قال عن غرفة إدارتها .. لقد أحست أن روحه نفرت من هذه الغرفة التى بعثت الكبرياء والعجب فى نفسها، وهذا أقل ماتفعله فترة من الزمان قدرها عشر سنوات

— هذه غرفة الخادمة ياصولوى ... لقد ذهبت لتمضى الليلة عند أهلها

وفتحت باب الغرفة فدهش صولوى لما فيها من أثاث ورياش ... وعجب كيف يغطى سرير خادمة هذا اللحاف الإيطالى الوشى، وكيف تزين أركان غرفتها هذه الأصص الفاخرة من السوسن المصنوع الجميل !

— أما تلك فغرفتى ... أنظر ... أتراها جميلة ؟

ونظر صولوى فذهل ... وسرعان ما ذكر أيامه القريبــة بمرجه القفر فى فلوات كندا، وكوخه الموحش الخشن ذا السرير الحديدى الصدئ، والأرائك البالية، التى ظل يتقلب فوقها طوال عشر سنوات، لايفكر فى زخرفتها وتوشيتها ! ووضع يديه فى جيبيه خاشعاً وقال :

— أحسب أنه آثر لدينا أن نستأجر خصاً فى ريف لندن فنعيش فيه شهراً قبل أن نحضر إلى هنا ... ألا توافقين ؟ »

وفهمت ماير يد أن يقول هذه المرة أيضاً فقالت : « ما أجمل أن يكون هذا ... ! »

وحان موعد العشاء، فذهبت به إلى حجرة الطعام الغنية الحافلة، حيث راعته المائدة النظيفة الناصعة، التى صُفت فوقها الأطباق والأكواب وكؤوس الخمر، وقوارير البلور، وملاعق الفضة ذوات الطنين وذوات الرنين ... وأكلا ... ودار بينهما هذا الحديث :

— لن تمضى خمس سنوات يا ديانا حتى يكون لك القصر الذى حلمنا به فى مرجنا الواسع الجميل ... لقد اشتريت لك حصاناً ياله من حصان ... وأسميته هصار ... وستروقك منه قوائمه البيض التى تشبه جوديات الربيع ... إننى إذن أستطيع أن أعين وكيلا عنى فنقضى نصف كل سنة فى انجلترا كما أشرت ! »

وكانت صدمة لروح ديانا هذه السنوات الخمس ... هذه الحلقة

الأخرى من الزمان الطويل اللانهائي ... وله ؟ أليست هي الآن في رغد من العيش؟ ما الذي يقسرها على ذلك المنفى البعيد الموحش الخشن ؟ إذن ، فلتصارحه !

وروت ديانا قصتها ، وكادت تجاس كأفروديت الساحرة على عرش جمالها ، ثم طلبت إليه ، أو أومأت إليه ، أنه ينبغي أن يهجر مرجه ليعمل معها في ال (هـ . بلندل) . فقال صولوى واجماً : « سأنظر في هذا ... سأنظر ! » ثم عبس وبسر ، وغاب من عينيه هذا الملاك الكريم الحالم ، وأطل مكانه شيطان رجيم مارد ، ثم قال : « طبعاً ... إنك لن تتركي كل هـذه الدنيا التي تلف حواليك لتذهبي معي إلى أمريكا فتبني لي عشاً هناك ... ! » وكانت روح الازدراء تتدفق في لهجته المرة ، فروعت ديانا وقالت تجيبه : «ماذا ياصولوى؟ إهدأ ماذا أصابك ؟ إني لم أرد أن أسوءك ؟» لكن صولوى لم يهدأ ، بل زادت ثورته ، واشتدت حدته ، فقالت ديانا : « تالله يا صولوى إن كل هذه الدنيا التي تحيط بي لا تهمني ... أنظر ... أترى هذه الصورة الصينية الفاتنة ؟ إنها أثر قيم اشتريته بالمئات ... وصديقتي تام تقدر عمرها بالقرون ... أنظر ... » ثم قذفت بالصورة إلى المدفأ فذهبت بها ألسن النيران

— لا أدري والله ماذا تعنين بهذا ؟

— أعني أنني لا تهمني زخارف الحياة كما زعمت !

— إذن ماذا يهمك ؟

— يهمني هذا العمل المتيد الذي بذلت له جهدي وقواي .. أل (هـ . بلندل) ياصولوى ! كيف أدعه يتلاشى ! ؟ »

— غير أنك كنت تعلمين أني قادم إليك !

— أجل ، كنت أعلم هذا ، بيد أنك تقول إنك في حاجة إلى خمس سنوات أخر ، إلى حلقة ثالثة لتضمن لنا عيشاً هانئاً ، وكيف ؟ كم بقي من العمر لنقضي منه خمس سنوات تضيع عبثاً وعناء ؟ وهذا العمل العظيم الذي شدته ؟ كيف يضيع هو أيضاً عبثاً ؟ بل أقيم أنا هنا ، لأنني أصبحت ضرورة لحياة كثيرين ، أما هناك ، أما في المرج البعيد النائي ، فإنني أكون عبئاً عليك وعلى نفسي ، وقد تقتلني الوحشة والركود ياصولوى ! ماذا أكون هنالك ؟ ماذا أعمل وقد تعودت العمل ؟ أأكون متعة فقط ؟

— لا . لا رأيت في حياتك مكروهاً كهذا المكروه ! وكيف تكونين متعة لراعي قطعان !

— خمس سنوات أخر ؟ ثم ماذا ؟ ما الحياة . يا صولوى حتى تريدها أن تحتمل كل هذا ؟ لقد علمتنا الحياة فنونها القاسيات .. لقد علمتنا أن ننظر إليها بعين غير العين التي تعودناها في الصبا .. لقد كشفت لنا عن المعميات يا حبيبي ! لقد وضحت لنا حقائقها بقدر ما غاضت أحاسيسها وترهاتها ! »

— وما هي هذه الحقائق بالله عليك ! ؟

— هي الصراحة والجد ، والجهاد والعمل ، والتحصيل الذي يضمن للانسان حياة طيبة موفورة قليلة البؤوس ، حياة كريمة تتفق وكبرياء المرء ، يرضى بها عقله ، كما يستريح إليها جسمه ! »

— وإذا عرضت عليك هذه الحياة ، ولكن في مرج بكندا فلم ترفضين ؟

— لشد مايعزب عنك ما أريد ياصولوى ! إن المادة لا تهمني إلى هذا الحد ، ولكن يهمني ألا تتعذب روحي في هذا الركن من أركان الدنيا ... أنا لم أتعود هذا اللون من الحياة الذي تريده لي يا حبيبي ، وقد أحتمله لوقت قصير ، بيد أنه لا جرم أنني سأضيق به ، وعندها يُقضى على كل شيء ... حتى على حبنا !

— لا تحدثني عن حبنا أرجوك ! إنني أرى ما وراء الأكمة ! إني أرى ماذا تضمرين ! بل كوني صريحة ... ماذا يرضيك بعد هذا ... ؟

— ولم لا أبقى أنا حيث أنا الآن حتى تشيد قصرك وتعد المدة لحياتنا المنشودة ، وأستطيع بذلك أن أدير أعمالي الواسعة هنا ، ثم نلتقي بعد أية فترة من الزمان ... بعـد عام أو عامين أو أكثر أو أقل ... ؟

— إذن تريدي أن تقصريني على خطتك دائماً ... توجهينني حيثما تريدين وكيفما تشائين ... لا ... لقـد تكلمت عن الوحشة والوحدة فيما مضى وفيما خفت أن يأتي ... إذن ... أنا لا أربطك

— ثم ... ؟

— ثم لا شيء ... إنك إذا استعملت أحداً في عمل لك ولم يؤده لك حسب هويتك استغنيت عنه واستعملت غيره مكانه ، أليس كذلك ؟

وسرت قشعريرة من الذعر في جسم ديانا ، وبدا الارتباك في محياها ، فلم يعبأ صولوى وقال متماً حديثه : « أنت تفضلين عملك المالي على أن تكوني زوجة لرجل راع صاحب قطعان في

كندا ، أليس كذلك ؟ لا بأس ، فزوجة الراعى لن يكون لديها وقت طويل للأعمال المالية ...

— هل تريد أن تجعلنى أفهم أنك قد عولت على الاستعاضة بامرأة سواى ؟

— لقد أخلصت لك سنوات عشرا فى جميع أمرى ... ولشد ما آسف على هذا البله الذى حصل منى !

— صولوى !

— لا ... بل لا بد من إنقاذك من هذا الغل الذى وضعته بإخلاصى حول عنقك ... فلا تبتئسى ولا تحزنى ... لا بد أن يتبدل أمر غير الأمر !

— بل أنت تحب امرأة أخرى !

— ولم لا ؟ ... على الأقل امرأة تعنى بشأنى ... لقد أخلصت لى ، وصدقتنى الحب .. فَرَىْ لنفسك فقد صرحت لك !

— إنك تعنى الطلاق .. مضحك .. مضحك جداً ياصولوى !

— عرفت إذن ! لا خير ! فلقد أخطأنا حينما كنا صغيرين فلم لا نتدارك خطايانا وقد شبينا ... إسمعى يا ديانا ينبغى أن أذهب الآن ... سأنزل فى فندق ، وسأخبرك عن اسمه بعد ، وإذا احتجتك فسأدعوك فى التلفون ...

— صولوى ... صولوى ... !

* * *

وفى اليوم التالى لقيت صديقتها تمار كورى ، فلما سألتها عما كان قالت لها ديانا : إنتهى كل شىء ، حيث كان ينبغى أن يبدأ كل شىء !

— ماذا تعنين ؟ أتقصدين أنك قذفت به من حالق بعد أن انتظرته كل هذه السنوات العشر ؟

— بل هو قد قذفنى من حالق يا أختاه ! لقد ظهر أنى كنت كَلاًّ عليه ... أليس هذا عجيباً ؟

— أكبر ظنى أن هذا كان نتيجةً لخطئك ؟ ماذا قلت له ؟

— قلت له إننى لا أستطيع أن أهجر عملى هنا فى الـ (هـ . بلندل) لأعيش فى قفار كندا ... ماذا كنت أقول له غير هذا ؟ أذلك يعنى أن حبى له قد نقص ؟

— فو ... !! يابلهاء ! بمثل هذه الحماقة يفلت من يديك كليف ؟ يا له من كنز ؟ ما الذى عوقك كل هذه السنين الطوال إن لم يكن هو حبك لصولوى ؟ وما الذى عوقه هو الآخر ؟ ما الذى جاء به من كندا ؟ لقد كان لك فى لويس كرا وفورد ، أوفى الشاب ستيفن ، خير زواج لو أردت ذلك منذ سنين ، فما الذى حال بينك وبينهما ؟ أليس هو حبك وجميل وفائك لصولوى ؟ والآن ؟ أتدعينه يفر منك هكذا ؟ يابلهاء ؟ ياحمقاء ؟

— يا أختاه فكرى قليلا فيما عسى أن تكون حياتى فى كندا بعد هذه السنين العشر الحافلة فى لندن الصاخبة ... سنوات عشر ياتام ! كلها جهاد ... كلها قتال ... كلها حرب على الحياة !

— حرب ! إى والله ! الحرب التى تعشقين ! أنت لا تهوين سواها ! الحرب التى كوّنت لك الـ (هـ . بلندل !) أليس كذلك ؟ وبم كونت لك هذه الحرب أعمالك الباهرة ؟ من دريهمات أريتها لى يوم لقيتنى قبل أن تلتحق بعملك الذى در عليك أخلاف الرزق فأعماك !! إنك من أجل الـ (هـ . بلندل) ترفضين ماعرضه عليك كليف من السعادة فى أكناف مرجه بكندا ، وقد علمت أنه عمل أبهر من عملك أضعافاً مضاعفة ... الـ (هـ . بلندل !) هذه اللعبة ! بل هو الفتى الخبيث ستيفن الذى فتنك ، والذى تظنين أنه يضمن لك حياة الخلد فى باحات لندن ! ياديانا ! لقد عرفت ستيفن قبل أن يعرفك فاحذرى ... إنه يصبو إلى ثروتك ليعتصرها ثم يقذف بك ... ثم لا يكون الـ (هـ . بلندل) بتك انجلترا بعد ... ؟

— ليس ما تقولين حقاً يا تام ! ...

— شـو ... دعينى أتم حديثى ... إنك لا هم لك إلا الحرب والقتال ... حتى أصدقاءك تحاربينهم ... حتى الرجل الذى أحببته وأحبك فأخلص لك الحب ... بل هناك حد إذا وصلت إليه الكبرياء انقلبت فصارت غفلة وحماقة ... ولقد وصلت إلى هذا الحد بإذن الله !

— تعنين أنه ينبغى أن أذهب فأنتظر السعادة فى قفار كندا بعد خمس سنوات طوال يبنى لى بعدها صولوى بيتاً يضمنى ويؤوى أبنائى ؟ ...

— لابد أن يصل كليف إلى كل مطمحه يوماً ما ... ولكن لا تنسى خطاباته إليك ، فلقد شهدت أكثرها ... لا تنسى أنه دعاك إلى كندا قبل خمس سنوات فأبيت ، فوافقك ، فلم لا توافقين

اليوم ...؟ ثق أن كل حرب إلى نهاية ، ولقد حاربت بما فيه الكفاية ... واعلمي أن ما أنت مقبلة عليه لن يحيق شره إلا بك !

— ماذا تعنين ؟

— أعني أن الكبرياء التي تحسبينها لك الآن ستكون له .. أعني أنه هو الذي سيرفضك فيقف مكانك وتقفين مكانه ، وتنعكس الآية ، ويصعب عليك إصلاح الحال !

— وكيف وقد انتهى كل شيء يا تام ؟

— بل لم ينته كل شيء يا أختاه ... المرأة التي عركت الحياة لن تفقد وسيلة لبلوغ مآربها ... وكيمياء الحظ ماهرة صناع

***

وجلست ديانا في غرفة إدارة ال (هـ . بلندل) مضطربة كاسفة البال ... وطفقت تذكر ما كان من حبها لصولوى ، وإخلاصها له طيلة هذا الزمان ، ثم ما كان من لقائه هذا اللقاء المضني .. ثم هذا الحب الذي زعمه لها أنه يشغل قلبه .. ورددت حديث صديقتها وسبب نعمتها تام كورى ، وراحت تسائل نفسها: ما عقبى هذا الجهاد الطويل الذي كانت تتخذه سبباً فأصبحت تتخذه غرضا ..؟ وجعلت تتخيل هذه المرأة التي سحرت حبيبها فشغلته عنها ؟ من هي ؟ وما جمالها ؟ وما مالها ؟ وما جسمها ... وجعلت تقارن كل ذلك بنفسها ... ثم تبسمت حين ذكرت مرج صولوى والحصان الذي اشتراه لها وقوائمه البيض ...

واستيقظت في باكورة الصباح فدقت التليفون إلى ال(هـ . بلندل) ، وكلمها إحدى العاملات فأخبرتها أنها لن تنزل إلى الشركة اليوم ... وعجبت العاملة لذلك أيما عجب ، إذ لم يحصل أن تأخرت المديرة خلال السنوات الخمس لأى سبب من الأسباب .. وانتظرت ديانا أن يكلمها صولوى في التلفون كما وعد فلم يصنع ، ولم يرسل أى خطاب منه يعلمها به ماذا انتهى إليه عزمه ...

ورن جرس التلفون فجأة فدق معه قلبها ...

— مِس بلندل ؟ هنا محل المصور لشيريرز ... لقد طلب إلينا شخص يدعى كليف صولوى أن نعطيه صورة لك عن إحدى السلبيات التي لك عندنا ، فهل نفعل ؟

— لا بأس ، ولكن هل أعطاكم عنوانه ؟

— كلا ... ولكنه حدد يوم الأربعاء لتسلم الصورة

— هل التي تكلمني هي المس موريس ؟

— أجل يا مس بلندل ، أنا هي ...

— أرجو إذا حضر المستر كليف لتسلم الصورة أن تدعيني في التليفون وأن تعطليه لديك حتى أحضر لمقابلته ، فهل تذكرين ! ؟

— بكل تأكيد يا مس !

وهكذا كان كليف صولوى أبعد في لندن منه في كندا ، لولا هذه المفاجأة التليفونية ...

***

ورن جرس التليفون يوم الأربعاء ، فدق قلب ديانا معه ... ولكن بشدة ...

— مس بلندل ... المستر كليف هنا ...

— أرجو أن تذكرى ما أوصيتك به ... سأصل حالاً

— أخشى ألا نستطيع حجزه طويلا ... لقد احتج بأن عنده ميعاداً قريبا ...

وأهرعت ديانا المسكينة إلى تحت ووجدت لحسن الحظ سيارة ركوب لدى الباب فطارت بها إلى الأستوديو ...

وا أسفاه ... لقد أخذ كليف الصورة ومضى لطيته ...

واسودت الدنيا في عيني ديانا ... وعادت في سيارتها تترنح في شوارع لندن ذات الضجيج ... ولم تسمج في عينها لندن كما سمجت ذلك اليوم ، ولم تكره صخبها كما كرهته الساعة ...

ثم لمحت كليف واقفاً عند عمود مصباح يسط الشارع المزدحم فجأة فأشارت إلى السائق فوقف ، ونزلت وهي لا تكاد تعي وذهبت من فورها إلى حبيبها ، غير عابئة بآلاف السيارات التي تطوى الشارع ... والتي أشار إليها الشرطى ذو الذراع البيضاء فوقفت جميعا ...

— صولوى ... ما هذا الظرف الذي تحمله ؟

وانتزعت منه الظرف الكبير الذي كان يحمل دعوى طلاقها فزقته قصاصات قصاصات ، وبعثرت الوريقات في الشارع ... والناس ينظرون ويبتسمون ...

— صولوى ... سأتبعك ... سأتبعك ولو إلى القطب الجنوبي ... سأعيش معك ... لن نفترق ... ستكون هذه السنوات الخمس حلقة تجاربنا الأخيرة !

دريني خشبة



مشروع جديد لدراسة القانون

وضع معالى وزير المعارف بصفته الرئيس الأعلى للجامعة المصرية مشروع إصلاح جديد لدراسة القانون فى كلية الحقوق ؛ وأهم عناصر المشروع الجديد هو تخفيض مدة الدراسة من أربعة أعوام إلى ثلاثة ، وإنشاء قسم جديد لإجازة الدكتوراه تجرى الدراسة فيه باللغة العربية ، وتكون مدتها سنتين . وقد كانت دراسة الحقوق حتى الآن تستغرق أربعة أعوام ؛ ولم يكن بالكلية من قبل قسم للدكتوراه ، فكان الطلبة المصريون الذين يرغبون فى الحصول على هذه الإجازة يقصدون بعد إتمام دراستهم بمصر إلى جامعات فرنسا ؛ وأنشئ أخيراً قسم للدكتوراه بكلية الحقوق ولكنه لم يحقق الغاية المرجوة من إنشائه لأن الدراسة فيه كانت بالفرنسية ، وكان الإقبال عليه لذلك ضعيفاً . وينص المشروع الجديد على حذف بعض مواد الدراسة التى أضحت غير ضرورية حتى تكون دراسة الأعوام الثلاثة شاملة لكل ما هو ضرورى فقط . والواقع أن توحيد القوانين الأهلية والمختلطة ، وتقدم القضاء المصرى بجهاته المختلفة فى ميدان التوحيد ، وتمصير الإدارة الداخلية مما يسهل تبسيط الدراسة القانونية التى كانت تحتوى من قبل على عناصر كثيرة من الدراسات القانونية والإدارية والمالية لم يبق لها اليوم ضرورة . ومن جهة أخرى فإن المشروع الجديد يقرب إلى طلبة الليسانس دراسة الدكتوراه ويشجعهم بذلك على التقدم فى دراسة العلوم القانونية العليا . وقد كان لهذا التعديل فى مناهج الدراسة وقع حسن لدى طلبة الحقوق

مجمع اللغة العربية الملكى

يفتتح مجمع اللغة العربية الملكى المصرى دورته الجديدة فى الثامن عشر من ديسمبر ، والمفهوم أن هذه الدورة ستكون خاتمة اجتماعات المجمع طبقاً للنظام الحالى . وفى خلال الدورة البرلمانية الحاضرة ينتظر أن يوضع نظام جديد للمجمع ينص على الزيادة فى أعضائه وعلى تنظيم اختصاصاته وتوسيعها ، إذ لا يخفى أن المجمع الحالى قد أنشئ فى ظروف خاصة ، وقصد به إلى تحقيق غاية ضيقة ، وأن عناصر مصرية تمتاز بمكانتها العلمية الرفيعة قد أبعدت عنه لاعتبارات خاصة ؛ والمفهوم أن هذه العناصر ستتبوأ مكانتها الحق فى المجمع الجديد ؛ وسيكون المجمع الجديد أداة لغوية علمية صالحة للعمل المثمر لخير اللغة العربية وتقديمها وتدعيم نهضتها ، وسيجرى على خطته من الاستعانة بالعناصر الممتازة فى هذا الميدان من أبناء البلاد العربية الأخرى وكذلك من العلماء المستشرقين ، على أن تتخذ هذه المعاونة صورة المراسلة العلمية والمؤتمرات العامة كما هو متبع فى الهيئات العلمية المماثلة فى أوربا

مؤتمر الرمد الدولى

اختتم مؤتمر الرمد الدولى الذى عقد بمدينة القاهرة منذ ٨ ديسمبر الجارى أعماله فى الرابع عشر منه . وهذا المؤتمر هو الخامس عشر من نوعه ؛ وقد وجهت مصر الدعوة إلى عقده بها منذ عام ، واشتركت فى إجابة الدعوة معظم الدول الكبرى وفى مقدمتها انكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكا . وشهد المؤتمر وفود كبيرة من أعلام الطب الرمدى فى أنحاء العالم . وقد كان لعقد هذا المؤتمر فى القاهرة أهمية خاصة ، لأن مصر تعتبر موطن الأمراض الرمدية ؛ وقد تقدمت بها مباحث الرمد تقدماً عظيما ، ولأطبائها الرمديين شهرة عالية . وقد نوه أعلام الأطباء

الأجانب فى المؤتمر بما كان للعرب من فضل عظيم فى هذا الميدان .
ومما هو جدير بالذكر أن هذا هو أول مؤتمر رسمى يفتتحه صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بعد توليه الملك ، وقد آثر حفظه الله أن يفتتحه باللغة العربية بعد أن كانت المؤتمرات المماثلة تفتتح دائماً باللغة الفرنسية ، وبذلك وضع جلالته سنة جديدة نبيلة

معهد فرنسى جديد للدراسات الاجتماعية

قررت مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة أن تفتتح قسماً جديداً يسمى معهد الدراسات الاجتماعية المصرية ؛ وقد بدأت الدراسة بالفعل فى هذا المعهد الجديد منذ ١٦ الجارى ؛ وصرح مديره الأستاذ بوابيه أن الدراسة فيه ستجرى على مثل الدراسة فى مدرسة العلوم السياسية بباريس ، وأنها ترمى إلى توسيع الثقافة القانونية والسياسية والاقتصادية ، وإعداد الطلاب للالتحاق بالأعمال فى الشركات الأجنبية

ونستطيع أن نذكر بهذه المناسبة أن فرنسا تبدى فى العهد الأخير عناية خاصة نحو تدعيم نفوذها الثقافى فى مصر ؛ فمنذ أسابيع قلائل افتتحت فى هليوبوليس مدرسة فرنسية جديدة (ليسيه) ، ويفد إلى مصر فى كل شتاء عدة من الأساتذة والكتاب الفرنسيين يلقون المحاضرات المختلفة وينوهون دائماً بما لفرنسا من مكانة ثقافية قديمة فى مصر . وفرنسا تشعر أن صرح ثقافتها القديمة فى مصر قد وهنت أركانه منذ بعيد ولم يبق منه إلا أطلال الجيل الماضى . وقد جاء اتفاق مونترو بإلغاء الامتيازات الأجنبية ضربة جديدة لهذا النفوذ الثقافى ، ولم يبق فى وسع مدرسة الحقوق الفرنسية أن تمضى فى مهمتها ؛ فافتتاح معهد الدراسات الاجتماعية هو محاولة جديدة للتمشى مع العهد الجديد ، واستدراك بعض ما طرأ على الثقافة الفرنسية فى مصر من عوامل الوهن والضعف

دور مصر فى بناء الحضارة

ألقى العلامة الدكتور هارتمان محاضرة فى بهو قصر ميرابل بمدينة سالزبورج تحدث فيها عن « الدور الذى أدته مصر فى تاريخ الحضارة » فذكر أن مصر القديمة بلد العجائب من وجوه كثيرة ، فهي مهاد الأديان والعبادات الأولى ، ومهد الفنون والبناء ؛ وليس من شك فى أن الحضارة المصرية القديمة كان لها أثر عظيم فى بناء الحضارة الأوربية ما يزال ماثلا إلى عصرنا . وقد كان اليونانيون القدماء الذين يعتبرون من آباء الحضارة الأوربية ، يعتبرون المصريين أساتذتهم فى الحكمة المقدسة وفى كل ضروب المعارف والحضارة ؛ وكانت مصر أول مهد فى التاريخ لفنون النحت والتصوير ، وقد وضع المصريون القدماء المباحث الأولى لمسائل العالم الخالدة ، وهى المولد والحياة والموت ، ودعوا فكرة الخلود والبعث ومثلوها فى النقوش والقربان ، وتحتفظ مصر الفرعونية بأقدم آثار فى هذا الميدان . وليس من ريب فى أن تقاليد الموت الفرعونية مازالت تمثل فى كثير من تقاليدنا ، وقد أوضح الدكتور هارتمان محاضرته بعدد من الصور البديعة

وهذه المحاضرة التى ألقاها الدكتور هارتمان أخيراً هي واحدة من سلسلة من المحاضرات الأثرية والتاريخية التى يلقيها أثناء موسم الشتاء عن حضارة مصر الفرعونية وتاريخها

الصحافة والترجمة بكلية الآداب

تفتتح كلية الآداب بالجامعة المصرية قريباً قسماً جديداً للصحافة والترجمة والتحرير يلتحق به الحائزون لأجازة الليسانس فى الآداب ، وسيسد هذا القسم الجديد فراغاً كانت الحاجة تدعو إلى سده ؛ وسيكون مهداً حسناً لتخريج شباب يجيدون الترجمة والتحرير والأعمال الصحفية الفنية

المعجزة ، الشعبذة

فى (الرسالة) الغراء — الجزء ٢٣٢ — فى (مجادلة في معجزات الإسلام) للسيد خليل جمعة الطوال — هذا القول : « الأمر واضح فلا نبوة بغير معجزة — وإلا لادعى النبوة كل مشعوذ » والمعجزة فى (الأديان) هى مضادّة السنن الكونية ، والسير الطبيعية . والعلماء الغربيون المتحررون يكفرون بالمعجزات ويرونها شعبذات ، ويقولون : إن الأنبياء لم يأتوا بها ، وإنما نسبها أتباع تلك الشرائع بعد حين أو قرون إلى شارعيها . ولهم فى موسى والمسيح (صلوات الله عليهما) ووجودهما أقوال كثيرة .

ففقدان (المعجزة) عندهم في دين هو من مزايا ذاك الدين . وهم يسخرون من كل نحلة تدعيها ، ويميبون كل طائفة تؤمن بها . ومن أئمة هؤلاء القوم في بلاد الغرب (م . جيو) صاحب كتاب (اللادينية في المستقبل) وهو كتاب مهم احتوت عليه خزانة (فريدريك نتشه) وقد قرأه هذا المفكر الجرماني ، وله في ذلك الكتاب تعاليق ذات بال . وهذا ما أورده (م . جيو) في مصنفه في مبحث فيه أوربه بلغته ، قال :

« Le mahométisme seul s'est introduit dans le monde sans s'appuyer sur aucun témoignage visible et grossier, en éclatant non aux yeux, mais aux esprits, camme dirait Pascal; sous ce rapport il avait peut-être à son origine une élévatian intellectuelle plus grande que le judaïsme et le christianisme »

فلو تملّى صاحب (الخليل) وعقل كلام هذا العالم الفرنسي لاستحى من أن يقول في (المعجزة) ما قاله إن كان من أهل الحياء

وبعد فليعلم من يجهل أن معجزات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي كتبتها مؤلفات المسلمين تزيد على معجزات النبيين كلهم أجمعين قاطبة

(قارئ)

الى الاستاذ عبد الله عنان

اطلعت على الكلمة التي استنكرت بها فرية صاحب « المكشوف » في بيروت بنشره مقالات لك قديماً وادعائه أنك أرسلت إليه عتاباً لطيفاً مع المقال . وقد عجبت قبل ذلك وداخلني الشك في العتاب والمقال ، وقلت في نفسي كيف أقدم الأستاذ عنان على هذا التملق والاستخذاء لجريدة عرفت مراميها التجارية في بث الفتنة وإيقاع العداوة بين الأدباء فضلا عن إمعانها في التزوير والطعن على قادة الأدب العربي في القطر المصري الشقيق. ولما رأيت الأستاذ أبا شبكة يعلق على مقالك في صحيفة « الجمهور » أبديت استغرابي بمقال نشرته « صوت الأحرار » ومما قلت فيه : « ومن الغريب أن يستخذى الأستاذ عنان فيبعث للمكشوف بعتاب لطيف ومقال عتيق عرض فيه لوجوه الضعف في الحركة الأدبية المصرية ، ترضية لجريدة عرفت غايتها في شن الغارة على أدب إخواننا المصريين ، وكان ينبغي أن يربأ بقلمه عن الخوض في هذا المجال حرصاً على كرامته »

أما وقد أعلنت مرتين استنكارك لتزوير صاحب « المكشوف » وإقامتك الدعوى الجزائية عليه — وأنت المحامي — فإني أعتذر إليك عما كتبت بنية خالصة . ولا ريب أن الصحافة اللبنانية تستنكر مثلك هذا التحرش ، فتنصح صاحب « المكشوف » بالإقلاع عن خطته الشائنة ، أو تدعو كل عربي لمقاطعة صحيفته القاذفة ، إن الباطل كان زهوقا

(دمشق) وداد سكاكيني محاسني

الى الأستاذ علي الطنطاوي

تعقيب على بعض ما جاء في رسالته إلى أخيه باريس (١)

عفا الله عنك أيها الأخ الكريم

أيجدر بك — وأنت المنتصر للشرق المنيور على الاسلام — أن تجعل من بلد شرقي مسلم مضرباً لأمثال السوء ؟ لئن كان عيب السودان لونهم الأسمر أو بشرتهم القاتمة ، فإن خلف تلك السمرة وذلك القتام قلوباً عامرة بالإيمان ، ونفوساً أبيّة تعيف عن مواطن المسكنة وترباً عن الهوان ، وعقولاً على نزر ما تلقى من الثقافة — بحكم مركز السودان السياسي — جبارة دائبة التفكير فيما يعلى شأن بلادها ، لا تخلد إلى الراحة ولا تستمرئ الخمول

سل مصر الشقيقة تنبئك عنا وتصل أسباب التعارف بينك وبين أخيك النائي ، فقد حان الوقت الذي يجب أن يعرف فيه بعضنا بعضاً حتى نعمل يداً واحدة فننهض برسالة الشرق والإسلام . وإن تذرع الأخ بأنه إلى غير سوداننا قصد فلا ينس أن كلمة « السودان » شاملة وأنه لا بد أن يلحقنا كِفلٌ من السبة

عفا الله عنك أيها الأخ الكريم ! على أني لا زلت معجباً بما تكتب ، فخوراً بغيرتك على الاسلام وانتصارك للشرق . وأصدقك القول بأني على رغم ما اضطرني إلى إثبات هذه الكلمة لم أقف قراءتي دون خاتمة الرسالة

(أم درمان — سودان) « سوداني »

(الرسالة) جاءنا من إخواننا السودانيين رسائل كثيرة في هذا المعنى فاكتفينا بهذه الرسالة لاعتدالها وإيجازها

(١) العدد ٢٣١ من الرسالة

فى المسرح الروسى الحديث

يقاسى المسرح الروسى الحديث كثيراً من العنت بسبب الدكتاتورية الفاسدة التى يفرضها الطاغية ستالين ... وقد كان المظنون أن البلشفية الروسية هى أشهى ثمار الأدب الروسى الذى تقدمها ومهد لها ، ووضع لها فى قلوب الفقراء أسساً من الثورة والتبرم والاشمئزاز من الوسائل القيصرية العاتية فى حكم الشعب ، وهو ما نلحظه واضحاً تمام الوضوح فى قصص دستو تفسكى وتولستوى وترجنيف وتشيخوف ومن إليهم من أعلام الكتاب الروسيين ... وكان المظنون أيضاً أن فقيد روسيا العظيم جوركى سيقف حائلا بين الأدب وبين طغيان الحكومة التى حاولت إفساده بإخضاعه لنظمها واستخدامه للتبشير بين الجماهير ، فلما شجر الخلاف بينه وبين رجال الثورة فى إبانها استبشر المغرمون بالأدب الروسى خيراً ، ولكنهم سرعان ما فوجئوا بعودة جوركى إلى روسيا وصلحه مع طغاتها ، وصيرورته مبشراً بتعاليمهم ، بل من أشد المتحمسين لهم ، حتى خاب الظن ، ووثق الجميع أن مجد الأدب الروسي قد انهار ، وأنه ركد ركوداً لا أمل فى انتعاشه منه قط ... ولولا أن كان جوركي أديباً بطبعه ، ولولا أن حياته امتدت فى ظل البلشفية ، لكانت نكبة الأدب الروسى بتعاليمها نكبة حاسمة ، إلا أن هذا الرجل الذى لم تلهه حياة الفراغ والدعة قد ستر هذا النقص فيما جناه هذا النوع الفوضوى من الحكم على الأدب فى روسيا ، فلما مات خبا آخر قبس من هذه النار المقدسة التى ظلت أعواناً تؤجج قلوب الروسيين ومشاعرهم ... وقد هال موت جوركى رجال الحكم فى روسيا وعلى رأسهم ستالين ، وهبوا ينصرون الأدب فيما يخيل لهم عن طريق المسرح ، وهم يبذلون جهود الجبابرة لإقالة عثرته ، بيد أنهم لمبالغتهم فى جعل المسرح للبلشفية ، لا البلشفية للمسرح ، ومبالغتهم أيضاً فى بلشفة كل ما يتعلق بالتمثيل قد باءوا بالفشل من حيث كانوا ينشدون النجاح ... وهم يعترفون بهذا ، ولذا دأبوا على إبراز درامات جوركى على أكثر مسارحهم ، حتى أن روايته الأخيرة (ييجور بوليشوق) تمثل فى الليلة الواحدة فى أكثر من ستة مسارح من مسارح العاصمة ... وتبدو الروح البلشفية المفتعلة فى درامات أكثر الكتاب ، إما لاضطرارهم إلى إرضاء الحكومة وتملقها ، وإما لعجزهم عن وصل ما انقطع من جهود أسلافهم العظام ... فهذه درامة (الأرستقراطيين) للكاتب نيقولا بوجودين تكاد تكون حرباً على الأرستقراطية التى يجهلها شباب روسيا تمام الجهل ... وكذلك رواية إيفان كوشرجا (الساعاتى والدجاجة) إن هى إلا درامة فارغة برغم الطبل المدوى الذى دقه النقاد الروسيون لها ، وبرغم الجائزة السنية التى نالها صاحبها بسببها . على أن بعض الكتاب الذين احتفظوا باستقلالهم قد استطاعوا أن يكتبوا قطعاً فنية رائعة وإن تكن تحمل الطابع البلشفى أحياناً ... ومن هؤلاء الكاتب فسوفولود فشنفسكى مؤلف (المأساة التى تبشر بالخير) والتى اضطر أن يقحم عليها روحاً من نوع الميلودرام إرضاء للسادة الحاكمين

ومن أعجب العجب خمول كتاب نابهين مثل كرشون وأفينوجنيف ... ويبدو أن سبب خمولهم عائد إلى عدم استطاعتهم هضم هذه الدكتاتورية التى يفرضها ستالين وأذنابه على روسيا ، وهى الدكتاتورية التى حاربوها من قبل فى شخص القيصر نفسه

« طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ »